

الغلاف بين اللغة والفكر

دراسة للعلاقة الترومية بين الفكر واللغة

سبحان الله الذي خلق الألسان علماً البيان ، وخلق فيه القدرة على
التفكير والتعبير باللغة ، دون استواء من الحيوان

تأليف

دكتور / أحمد عبد الرحمن حماد
مدرس علم اللغة - بجامعة الإمارات العربية المتحدة

١٩٨٥

دار المعرفة الجامعية
شارع شور - الدار البيضاء - المغربية

١٥
٢٠٢٢

العلاقة بين اللغة والفكر

دراسة للعلاقة اللغوية بين الفكر واللغة

سبحان الله الذي خلق الإنسان علقه البيان ، وخلق فيه القعدة على
التفكير والتعبير باللغة دون سواه من المخلوقين

تأليف

دكتور / أحمد محمد الرحمن حماد
مدرس علم اللغة - بجامعة الإمارات العربية المتحدة

١٩٨٥

دار المعرفة الجامعية
طابع شوبر - المنامة - المملكة العربية السعودية

العلاقة

بين

اللغة والفكر

الفصل الأول : بين اللغة والفلسفة

- ١ - نبذة تاريخية .
- ٢ - اللغة والفكر .
- ٣ - الكلام والفكر .
- ٤ - تطور اللغة مع تطور الفكر .
- ٥ - قيمة الفكر .
- ٦ - السمات المشتركة بين اللغات .

الفصل الثاني : الكلام واللغة واللسان

- ١ - وظيفة اللغة .
- ٢ - اللغة وسيلة للتعبير .
- ٣ - اللغة وسيلة للتبليغ .
- ٤ - دلالة الالفاظ على المعاني .

الفصل الثالث : نشأة اللغة عند الطفل

- ١ - كيف يتعلم الطفل اللغة .
- ٢ - كيف يتعلم الراشد اللغة .
- ٣ - اللغة عامل فردي وطبقي مميز .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

سبحان الله الذى خلق الإنسان علمه البيان ، وخلق فيه القدرة على التفكير والتعبير باللغة دون سواه من الحيوان .

ولقد دفعنى إلى كتابة هذا البحث المتواضع عن الفكر واللغة ما لمسته أثناء دراستى وتفحصى لكتب اللغة فى القديم وعند المحدثين فلم أجد من أفراد له بحثا خالصا وذلك لما يعتور هذا البحث من تعقيد وغموض فهو فلسفى عقلى لغوى ، وبعد قراءات متعددة لعدة كتب فلسفية ولغوية أخذت على عاتقى ان أخوض فى هذا المضمار راجيا الله أن يلهمنى التوفيق والسداد لما فيه مصلحة لغتنا العربية الشريفة التى هى بحاجة ماسة الآن لصونها وحفظها والارتفاع بها إلى مستواها اللائق بها حيث كانت وستبقى لغة القرآن لغة الذكر الحكيم ، ولقد اشتمل هذا البحث على نبذة تاريخية عن أصل اللغة وذكر الآراء فى نشأة اللغة أهى توفيقية أم اصطلاحية وقد أوضحت رأينا فى هذا الموضوع حيث أن اللغة توفيقية اصطلاحية معا فهى توفيقية فى عهد آدم عليه السلام اصطلاحية اجتماعية فى العهود التالية لأن الحياة متطورة متغيرة ولابد لهذا التطور من مسايرة اللغة حتى تعبر عن حاجة أهلها والمتلاعين بها .

ثم أوضحت علاقة الفكر باللغة وناقشت الآراء فى هذا الموضوع موضحا أن اللغة والفكر هما وجهان لعملة واحدة فلا بد للفكر من لغة يعبر بها الإنسان عن أفكاره ورغباته ولا بد للغة من فكر حتى يطورها

ويسمو بها فالفكر يتطور وينمو وبذلك تنمو اللغة وتتطور وتسايره
نموا بنمو حتى تستطيع أن تعبر عنه أصدق تعبير .

ثم أوضحت الأثر الرئيسى للغة وسيلة للتعبير والتوصيل والتبليغ
وكان لا بد من الإشارة إلى دلالة الألفاظ على المعانى مبينا أهمية البحث
في دلالة الألفاظ ، وكان حديثى عن نشأة اللغة عند الطفل ضروريا
لإثبات أن اللغة مكتسبة وليست وراثية ثم أوضحت السبل التى يتعلم
الطفل بواسطتها اللغة وكذلك أثر اللغة في حياة الراشدين من الأفراد
وكيف أن اللغة تكون عاملا مميزا للإنسان في بيئته وطبقته ومهنته .

وبعد فأننى أرجو الله العلى القدير أن أكون قد وفقت في كشف
الغموض الذى يكتنف علاقة الفكر باللغة وإيضاح اثر الفكر على اللغة
واللغة على الفكر وسبحان الله الذى خلق الإنسان وأودعه عقلا يفكر
به ويدبر .

وبالله التوفيق ..

أحمد حماد

العين ن ٢٧ جمادى الأولى

الموافق ١٢ من مارس ١٩٨٣ م

الفصل الأول

نبذة تاريخية

في الحقيقة أن التفكير في أصل اللغة بدأ عندما انصرفت عقول الناس إلى إثارة أسئلة من هذا النوع : لماذا لا يتحدث البشر في كل مكان نفس اللغة ؟ وكيف وضعت الكلمات لأول مرة ؟ ومن هو واضعها ؟ وما هي العلاقة بين الكلمة والشيء الذي تقوم مقامه ؟ ولماذا نطلق على ذلك الشيء هذا الاسم بالذات لا اسما آخر ؟

لقد اتسمت هذه الأسئلة في القديم بالطابع الغيبي وهكذا نجد في الكتب السماوية بأن اختلاف اللغات مرده إلى عقاب الله عز وجل للإنسان على ذنوبه وغروره . وكلنا يعرف قصة برج بابل الذي قيل في الكتاب المقدس بأن أولاد نوح عليه السلام أرادوا تشييده لبلوغ السماء ففرق الله كلمتهم وخيب سعيهم بتغير لغاتهم التي يتفاهمون بها ، وجاء في سفر التكوين ؟

« والله خلق من الطين جميع حيوانات الحقول وجميع طيور السماء ثم عرضها على آدم ليرى كيف يسميها وليحمل كل منها الاسم الذي يضعه له الإنسان فوضع أسماء لجميع الحيوانات المستأنسة ولطيور السماء ودواب الحقول »^(١)

أما فلاسفة اليونان فقد أثاروا مشكلة أخرى اتسمت بالتجريد فقد تساءلوا عما إذا كانت الكلمات تعبر بالطبيعة وبالضرورة عن المعاني

(١) سفر التكوين الأصحاح الثاني الآية ١٩ وما بعدها

التي تشير إليها أم أنها مجرد رموز اصطلاحية لمعان يمكن أن يعبر عنها بأصوات أخرى ؟ .

إن الجواب على هذا السؤال نجده في الحوار الذي كتبه أفلاطون بعنوان « قراطيل » ولعله من المفيد أن نلخص ما جاء في هذا الأثر الفلسفي فهو عبارة عن محاوراة تدور بين هرموجين وقراطيل وهما من تلامذة سقراط ، حول الاسماء وانطباقها على مسمياتها وبينما هما يتحاوران إذا بسقراط يقبل عليهما فيطلب منه هرموجين أن يشارك في الحديث ليفصل في ما نشب بينهما من خلاف أما قراطيل ، فيرى أن الاسماء وضعت على شاكلة الأشياء ، وهي لها كالقالب وأما هرموجين فيرى بأنها نتيجة للاتفاق والاصطلاح ، وعندئذ يعتذر سقراط كعادته قائلاً في تواضع بأنه غير كفء لأن يكون حكماً بينهما إلا أنه على استعداد للمشاركة معهما في الحديث ، ولا يكاد يأخذ في الكلام حتى ينطلق ويشرف على الحوار مخاطباً هرموجين أولاً ثم قراطيل ثانياً ويرهن لهما أن كلا منهما قد جانب الصواب فيما ذهب إليه ويوضح فكرته بطريقة لبقة مبينا لهما أن الكلام منه ما يحتمل الصدق ومنه ما يحتمل الكذب فإذا صح ذلك فإن أقسام الكلام هي بدورها تحتمل الصدق والكذب وبالتالي فإن الاسم الذي هو جزء من الكلام يحتمل بدوره الصدق والكذب ، ومن الناس من يعتقد أن الاسم الذي يطلقه كل انسان على شيء من الأشياء هو الاسم الصحيح ولكن ما هي حقيقة الأشياء ؟ أهو الوجه الذي تظهر به لكل فرد جرياً على مذهب بروتاغوراس Protagoras⁽¹⁾ .

(١) فيلسوف يوناني عاش بين ٤٨٥ ، ٤١١ ق . م وكان يرى أن المعرفة أساسها الإحساس .

أم أن الحقيقة لها وجه واحد هو الوجه الذي يراه كل إنسان كما قال
أوتيدم Euthydeme^(٢) أم فرضية بروتاغوراس فهي مرفوضة لأنها لو
كانت صحيحة لكان جميع الناس حكماء وعقلاء . وكذلك فرضية
أوتيدم لأنها لا تفرق بين الاختيار والأشعار ، وعلى ذلك فللموجودات
(أو الكائنات) جوهر ثابت لا يتبدل بقطع النظر عن الوجه الذي
تظهر به للإنسان والمقصود بالموجودات ليست هي الأشياء فحسب
بل كذلك الأفعال وبما أن الكلام نوع من الفعل فإن العقل يقضى بأن
تسمى الأشياء بحسب ما تستلزمه طبيعتها ، وأن يطلق عليها الاسم
الذي يناسبها ويمضي سقراط في كلامه فيشبه عملية التسمية بالحياكة
وكما أن المكوك يستعان به لفك الخيوط المتشابكة ، فكذلك الاسم
يستعمل لتعليم الناس وإرشادهم إلى وجه الحقيقة ، وكما أن المكوك من
صنع النجار فكذلك الاسم إنما هو من وضع الواضع . فإذا أراد النجار
أن يصنع المكوك فينبغي أن يعطى له الشكل المناسب لنوع العمل
المرغوب . وكذلك الاسم فلا بد أن يكون مناسباً للشيء الذي أطلق
عليه ، وإذا قيل من ياترى سيحكم بما إذا كان الشكل الذي أعطى ،
والاسم الذي وضع مناسبين ؟ فالجواب على ذلك أن الحكم لمن
سيستخذ مهماً وبعبارة أخرى فالحكم سيكون للمتكلم لأنه هو الذي
سيقبلهما أو يرفضهما . وعلى ذلك فالواضع إنما يضع الأسماء مهتدياً
بآراء جماعة المتكلمين وما كل إنسان بقادر على أن يضع الأسماء بل هذا
العمل مقصور على من يستطيع أن يدرك ماهية الشيء وأن يعطى لها
صياغة مقبولة في قالب الحروف والمقاطع الصوتية^(١) .

(٢) فيلسوف يوناني من القرن الخامس ق . م . وهو أحد أبطال افلاطون في محاوراته

(١) علم النفس اللغوي د . حنفي بن عيسى - الشركة الوطنية للطبع والتوزيع الجزائر

« وقد انبثق هذا الحوار عن نظريتين في أصل اللغة هما النظرية التوقيفية والنظرية الاصطلاحية ، أما الأولى فقد دافع عنها قراطيل ، لأنه انتهى إلى القول متأثراً برأى هيرقليط (٥٧٦ - ٤٨٠ ق . م) بأن الأسماء صادرة عن قوة إلهية فهي إذن وقف على مسمياتها . وأما الثانية فقد دافع عنها هرموجين ، متأثراً هو أيضاً بالفيلسوف ديمقريط من القرن الخامس ق . م . الذي كان يرى أن وضع اللغة إنما هو مسألة اتفاق بين الناس وتواضع فيما بينهم ولا دخل فيها للقوة الإلهية »^(١) .

على أن سقراط وكذلك أفلاطون قد وقف كل منهما موقفاً وسطاً فمن المسلم به أن هناك علاقة وطيدة بين الاسم والمسمى أى أن الأول وقف على الثاني ، ولكن هذا الحكم لا يصح إلا إذا كان الاسم مناسباً أى موضوعاً على شاكلة المسمى ليعبر عن ماهيته . ولا ينبغي كذلك أن ننسى أن الواضع قد يخطئ وبالتالي فإن الأسماء التي يضعها قد لا تنطبق على مسمياتها فإذا قيل بأن القوة الإلهية هي التي تضع الأسماء وهي معصومة من الخطأ - فلنا أن نتساءل حينئذ لماذا يقع الناس في الخطأ مادامت القوة الإلهية هي التي تضع الأسماء ؟ ألا يوجد من الأسماء ما يدل على هذين معاً بحيث قد يلتبس الأمر على المخاطب فلا يدري من منهما المقصود ؟ وهل يعقل أن تقع هذه القوة الإلهية في تناقض ؟ أن الجواب على هذه الأسئلة ليس بالهين والاحسن أن نتساءل ما الحكمة من وراء وضع الأسماء ؟ إن الحكمة هي تعليم الناس وارشادهم إلى وجه الحقيقة لأن الإنسان إذا عرف الاسم فقد عرف الشيء الذي يدل عليه ولكن لا ينبغي أن نركن دائماً إلى الأسماء لأن

(٢) المرجع السابق ص ٢٤ .

ونسبها قد يكون مبنياً على خطأ في إدراك ماهيتها . ولهذا علينا أن نرجع دائماً إلى الأشياء بالذات وأن تكون عليها العمدة إذا حدث سوء تفاهم .

وشبهه بالآراء السابقة ما ذهب إليه بعض أئمة العربية ممن كان يرى بأن اللغة الهام وتوفيق من عند الله . ولعلمهم تأثروا في ذلك بكون اللغة العربية هي لغة الوحي . ويمثل هذه النظرية ابن فارس المتوفى (عام ٣٩٥ هـ) إذ يقول : « ان لغة العرب توقيف ودليل ذلك قوله جل ثناؤه . (وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم .

قال يا آدم أنبئهم باسمائهم قال ألم أقل لكم أنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدى وما كنتم تكتمون » صدق الله العظيم - سورة البقرة آية (٣١/٣٣)^(١) .

فكان ابن عباس يقول : « علمه الأسماء كلها وهي هذه التي يتعارفها الناس من دابة وأرض وسهل وجبل وحمار وأشياء ذلك » . ونجد في المقابل أن ابن جني المتوفى (٣٩٢ هـ) كان يقول بأن اللغة اصطلاح وتواضع . « إذ يقول هذا موضع محوج إلى فضل تأمل ، غير أن أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح لا وحي وتوقيف إلا أن أبا علي رحمه الله (يعني أبا علي الفارسي أستاذه) قال لي يوماً : هي من عند الله واحتج بقوله تعالى : « وعلم آدم الأسماء كلها » .

(١) الصاحي في فقه اللغة العربية وسنن العرب في كلامها ص ٣١ . ابن فارس وانظر .
الخصائص . ابن جني ص ٤٠ وما بعدها ج ١ .

كما ذكرنا فقد كان رأى ابن جنى أن اللغة هي تواضع واصطلاح لا وحى وتوقيف إذ يقول . « وذلك بأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعدا فيحتاجوا إلى الإبانة عن الأشياء والمعلومات فيصعوا لكل واحدة منها سمة ولمظا إذا ذكر عرف به مسماه ليمتار عن غيره ويعنى بذكره عن احضاره إلى مرآة العين فيكون ذلك أقرب وأحف وأسهل من تكلف احضاره لبلوع العرص في ابانة حاله »^(١) .

ودهب البعض إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعة كدوى الريح وحرير الماء وبعيق العراب وصهيل الفرس إلخ وحلاصة رأى هؤلاء أن الواضع أحد بعين الاعتبار مسألة مشاكلة الألفاظ لدلولاتها من حيث الصوت^(٢) .

وأن البحث عن أصل اللغة قد أثار كذلك اهتمام مفكرى القرن السابع عشر والثامن عشر ومجد أن المفكر الفرنسى روسو^(٣) (١٧١٢ - ١٧٧٨) يفترض أن الرجال الأوائل الذين عاشوا على سطح المعمورة اجتمعوا فيما بينهم قصدا أو عرضا ليصطلحوا على تسمية الموحودات وليس من المستغرب أن ينتهى روسو إلى مثل هذا الرأى المتعلق باتفاق الناس واجتماع كلمتهم لوضع المصطلحات لأن هذا الرأى يسعهم تماما مع نظريته الشهيرة التى تعرف بالعقد الاجتماعى على أنه من الصعب علينا اليوم أن نتصور كيف كان أولئك الرجال لا يطقون ثم شعروا ذات يوم بالحاجة إلى الكلام فاتفقوا فيما بينهم على أن صوتا معينا يتلفظون به سيصرف إلى شىء خاص دون

(١) الصحبى في فقه اللغة العربية وسن العرب في كلامها ص ٣١ ابن فارس وصر

لخصائص ج ١ ص ٤٤ ابن جنى

(٢) الخصائص ج ١ ص ٤٦ ، ٤٧ ابن جنى

(٣) محاصرات في علم النفس اللغوى د حمى بن عيسى

أما المفكر الفرنسي كوندريك^٤ (١٧١٥ - ١٧٨٠) فقد تصور حالة امرأة ورجل لا يصفان ، وبين كيف أن الظروف تؤدي بهما بصورة طبيعية إلى ما يشبه الكلام فإذا شعر أحدهم بهيجان أو عاصفة أو حاجة قوية أو غير ذلك من الدوافع ، فإنه يأخذ في الصراخ والقيام بحركات وإشارات مختلفة فإذا تكررت نفس الحركات والأصوات وارتبطت في ذهن المستمع بالأشياء الموصلة إليها فإن الأصوات لن تلت أن نحل محل الأيماء باليد وأن تعني عنه . ومن كانت قدرة هذين الشخصين على تنويع الأصوات محدودة فإن أولادهما لا شك أقدر منهما على الاتيان بمختلف الأصوات الدعوية وهكذا بالتدريج تتألف مفردات ويترايد رصيدها جيلاً بعد جيل إلى أن تتشكل من مجموعها اللغة .

وحلاصة رأيا أن اللغة توقيفية اصطلاحية فهي كما قال ابن فارس توقيفيه في بداية عهدها ثم بعد أن تطورت الحياة سيارت اللغة هذا التطور فكان لابد من التواضع والاصطلاح ، وهذا يتفق مع ما قال به ابن حني من علماء العرب وغيره من علماء العرب مثل رسو وكوندياك بأن اللغة طاهرة اصطلاحية يخترعها الإنسان في المجتمع في المجتمع الذي يعيش فيه طبقاً لقدرة مخلوقه الأعضاء والأعصاب تمر الإنسان عن سائر الحيوان والكائنات الأخرى هي إذن نشاط فكر

وطاهرة اجتماعية تلامم البشر وتحيا حياتهم أي أنها تسير على سنة التطور الذي يقوى البشر مجد هناك عصوراً تمتاز بالحضارة والاردهار وأخرى بالتحلف والتفوق ، وتكون اللغة هي المرأة التي

(٤) المرجع السابق

تعطى الصورة الحقيقية كهذه الحالات ، وهذا يجد أن اللغة من أهم
شعب الدراسات الإنسانية حيث هي المعبر الحقيقي عن آمال الشعوب
وآلامها ورقمها وازدهارها عن مهضتها وحضارتها .

اللغة والفكر

سيحان الذى منح الإنسان عقلا يفكر به ويدبر وأودعه جهاز يفصح به ويبرر . أن تحديد الروابط بين الكلام المسموع وبين الفكر الهائمة فى آفاق النفس البشرية ، ما يزال يعتبر من أشد مباحث علم اللغة تعقيداً وأكثرها طرافة فى آن واحد ونحن نعلم أن اللغة ما هى إلا رموز صائته يحدد بها الإنسان تجاربه الحسية أو المعنوية ، ولما كانت اللغة هى الوسيلة التى يعبر بها الإنسان عن أفكاره وما يدور بخلدته وهى الوسيلة لتفاهم والتعامل مع أفراد المجتمع ولما كان الفكر المعبر عنه بهذه اللغة فى تعبير مستمر نتيجة للمؤثرات الخارجية ونتيجة للتقدم العلمى والتقنى وتطور ورقى المجتمعات وظهور المخترعات فلا بد أن تساير اللغة تطور هذا الفكر الذى تعبر عنه ، إذن فعلاقة الفكر باللغة علاقة وطيدة ويمكن القول هما وجهان لعملة واحدة يقول العالم دولاكروا « ان الفكر يصنع اللغة فى نفس الوقت الذى يصنع فيه من طرف اللغة »

كما نعلم أن اللغة هى عبارة عن سبق من الاشارات يمكن أن يستعمل للنواصل أو بمعنى آخر هى تلك القابلية التى يوفر عليها الإنسان لاختراع الرموز بكيهيه معتمدة . نجد هنا أن اللغة خاصة بالإنسان وتختلف عن لغة الحيوان إذ يستخدم الحيوان الاشارات فى توصله مع الحيوانات الأخرى .

أما الفكر ، فهو ذلك الداء الذى يحوى الصور والاحل والذاكرة والذكاء ، ومحرك الفكر هو الذكاء ، والذكاء عند الإنسان لا يبلغ

درجة الكمال إلا عندما يصبح عقلا ونشاطا تحريريا يستعمل المفاهيم والتصورات بواسطة اللغة . فالفكر لا يستطيع أن يعبر عن شيء إلا بواسطة اللغة لأن الله مع الانسان فكرا وجهارا لعلويا ، فوظيفة الفكر التفكير ووظيفة الجهار اللعوى الطلق والتعبير ولا يكون ذلك إلا بلغة .

لقد اختلف الباحثون والفلاسفة في تعريف اللغة ، فعرفها الفيلسوف (لالاند) بأنها (حملة من الاشارات يمكن أن تكون وسيلة للاتصال) وهذا التعريف يجاب الحقيقة لأن الاشارات وحدها لا تكفي للتعبير عما يدور بخلد الانسان ، ونجد أن الحيوان يستعمل الاشارات في التعبير عن أحواله ، وقد اكتشف «فون فريش»^(١) اشارات النحل والتي تتمثل في رقصات تشير بها إلى مكان الغذاء الذي تكون قد اكتشفته ، من هنا تكون للحيوانات اشارات ورموز تابعة من العريرة ، ولكن الانسان له لغة يكسر وراءها الفكر وهو محرك الانسان ، والعريرة وهي محرك الحيوان .

وقد عرف ابن جني اللغة فقال : « حد اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم »^(٢) وهذا تعريف دقيق يتفق في جوهره مع تعريف المحدثين للغة ، فهو يؤكد الجانب الصوتي للرموز اللعوية ، ويوضح وظيفتها الاجتماعية وهو التعبير ونقل الفكرة في اطار البيئة اللعوية ، وتؤدي وظيفتها في مجتمع معين ، ولكل قوم لغتهم التي يعبرون بها عن أغراضهم .

(١) حياة وموت النحل Von frish vie et moevdes a leilles ص ١٥٩

(٢) انظر الخصائص ابن جني ج ١ ص ٣٣

فاللغاني يستعمل الألمانية ويتفاهم بها مع مجتمعه ، والعربي يستعمل العربية للتفاهم والتعامل مع افراد بيئته .

واللغة تختلف من مجتمع لآخر ، وطريقة التفكير تختلف كذلك من بيئة لآخرى وبعد فانا سنناقش علاقة الفكر باللغة .

يتبين لنا من الساحة المبدئية أن التفكير سابق على اللغة ، فكثيرا ما تبتثق المفكرة في ادهاننا ، وبقي نبحث عن العبارات التي تؤديها كما أن استعمالنا لأكثر من لغة واحدة للتعبير عن المعنى الواحد يكشف لنا عن أسبقية الأفكار بالنسبة للوسائل اللغوية التي نعبر بها .

ومجد أن سلوك الصم والبكم يسم عن تفكير سليم يتصح معه أن الانسان بإمكانه ان يستعمل اشارات للتعبير عن أفكاره ، ولكن الانسان استعمل جهازه الصوتي لأنه الوسيلة الوحيدة التي بواسطتها يستطيع التعبير ، فالإنسان البدائي قد ترك التعبير بواسطة الاشارات لأنه اتفق ان التعبير بواسطة الجهار الصوتي أفضل وسيلة ، إذ لا يستطيع الإنسان أن يعبر بالاشارة خاصة في الظلام .

ولقد منح الله الانسان جهازا صوتيا مميرا عن سائر الحيوانات ، فمهما بلغ رقي الجهار الصوتي لدى الحيوانات فانه لن يصل إلى حد الطق والكلام ومما حاولت بعض القرود أو أنواع الشمبانزي أن تصدر أصواتا فهي بالنال عاجزة عن الكلام وانطق ولقد عرف ارسطو الانسان انه حيوان ناطق وفسر النطق بامعكر ، وهذا غير بين اشارات الانسان والحيوان فحدد الاشارات عند الانسان ناتجة عن فكر فهو يعرف إلى ماذا يشير وعن ماذا يعبر بالاشارة ، أما الحيوان فالاشارة

عنده ناتجة عن اندفاع عريزي ، ولقد أخرى (فون فريش)^(١) تجربة مع
الحل حيث وضع سكرًا حلو المذاق فوق أحد أعمدة اللاسكي
كانت توجد عند أصله حليه محل فاكثفت بعض الحللات ، هذا
السكر فرجعت إلى الحلية حيث قام بالرقصات الدالة على اكتشافها
لهذه المادة الحلوة اللذيذة .

لكنها لم تتكلم من أن نوضح للمعاملات لاتجاه الذي يوجد به
السكر ، فانتهت إلى نواحي مختلفة باستثناء أعلى العمود .

وهذا يدل على أن الحل عجزت عن التعبير عن مكان السكر
وابلاع بقية الحل بذلك وهكذا نجد أن اللعبة هي الوسيلة الوحيدة
لتعبير عن الفكر ، لكن اسبقية التفكير من الساحة الرمائية لا تقتضي
اسبقية من الساحة العملية بالسنة لفرد الذي يعيش في وسط اجتماعي
ولا يستطيع أن تحدد فاصلا رميا بين اللعبة والفكر فالطفل يتعلمها في
آن واحد وهو يكتشف أفكاره في العبارات التي يستعملها ، كذلك
استحضر السوي الكبير فانه بعد أن يتعلم اللعبة فلا يستطيع أن يفكر
بدون لعبة فاللعبة لتفكير مثل الدخان الذي يدل على وجود النار ، بل
أنهما متداخلان يصم أحدهما الآخر ، فإذا كان المعنى يؤحد من العبارة
فان العبارة ليست إلا وجودا خارجيا للمعنى

إذن فليس التفكير ظاهرة داخلية كما يرغم البعض ، والذي يوهما
وجود تفكير بدون لعبة إنما هي الأفكار التي يمكن استحضارها أثناء
الصمت . والواقع أن هذا الصمت الطاهري إنما هو كلمات والعاط ،
ولقد ذهب واطس^١ إلى التوحيد بين اللعبة والفكر فهو يرى أن الفكر

(١) نفس المراجع السابق

(١) التعبير والتفكير ص ٢٠٤ ش. شار

ليس شيئاً أكثر من الكلام الذى بقى وراء الصوت ، إنه كلام الخنجرة
لا الصوت . وعندما يفكر الانسان فانه يتكلم بالرغم من أن هذا
الكلام لا يسمع .

واقول ان الانسان لا يمكن أن يفكر بدون لغة أياً كانت هذه اللغة
وليس هناك أدنى شك بأن التفكير في أغلب الحالات يقتضى استعمال
اللغة .

أما «سايير» فلاحظ أن أشكال أو صور لغتنا تهبنا سلفاً بعض
أشكال الملاحظة والتأويل ، أن علينا أن نتعلم في كثير من الحالات ان
نكافح مقتضيات اللغة فاما عندما نستعمل التعبير (العشب يتموج
بالسيم) أو الاحتكاك يخفف حركة السيم فاما تقع في خطأ تشخيص
أو تحسيد كلماتها هذا المعنى ، ويواجه لا حظ هو الآخر لدى
الأطفال ميلاً إلى تشخيص أشياء جامده والتحدث عنها كما لو أنها أشياء
حية وهو يرى أن هذا الميل « التحسيدى » ميل عام لدى الأطفال
لا يتعلون عليه إلا بالتدريج وويواجه يعرف هذا بأثر العادات النعوية
في هذا الموضوع فعندما نقول « الشمس تشرق أو تغرب » وعندما
نقول ماذا تقول الامواج الشائرة أو نقول هي ونحن نتكلم عن الباحرة
مثلاً فانه من الواضح اما شجع أطفالنا على التعبير عن هذا الميل
انشخيصي ، ووجود هذا الدليل أدنى ب (ماكس مللر) إلى اعتبار
استنولوجيا أى الخرافة « مرصاً نعويًا » فعندما نقول أن الشمس تحاول
احتراق العيوم ، وأن الرياح تهر الأشجار ، وأن الأشجار تحس اتجاه
الرياح فاما تقع في عادات نعوية نهبنا لتشخيص هذه الأشياء الحامدة ،
وهذا ما يؤدي مباشرة إلى نمو الاساطير .

وقد ذهب (بندكت)^(١) إلى أن هناك عدة فرضيات لتعليل أصول الاساطير ولكنه لم يتوصل إلى أى فرضية مرضية تماما ، ومهما يكن فإن اللغة تؤثر في طبيعة الفكر كما أن الفكر يؤثر في طبيعة اللغة ، وأنا لن يصل إلى تقرير أى من اللغة أو الفكر قد سبق الآخر ولكن الصواب أن الفرد الذى يولد في محيط له ثقافة خاصة ، سيفكر بالاعتماد على مفردات تتصل بوسيله التعبير الشائعة في جماعته ، وإن طبيعة تفكيره بالتالى ستكون متأثرة بذلك فحين عندما نريد دراسة الطريقة التى يفكر بها أى شعب من الشعوب فإننا ندرس لغة هذا الشعب .

يقول دونلاب : « عندما ندرس بنية اللغة في شعب ما فإننا ندرس صور وطرائق تفكيره ، وعندما ندرس مفرداتها فإننا نكتشف نماذج مميزات ، فإذا راعينا بأن اللغة هي تبلور فكر الشعب فإن قولنا هذا بعيد عن أن يكون خلاف الحقيقة ، ودونلاب يقدم لنا هنا حقيقة والفروق الموجودة بين مفردات الشعوب تلقى بعض الضوء على ثقافتهم ، انه ليس من الممكن في بعض اللغات مثلا أن تميز بين كلمتي (Tuer) قتل (بلا عمد) و (assassinier) (قتل بعمد) فالحماقات الأخرى البعيدة عن هرسا المهم لديها هو النتيجة سواء كان القتل عمدا أو بعير عمد .

وقد رعم بعض علماء النفس أن لغات البدائيين فقيرة بالكلمات المحردة وقالوا من حقا القول أن تفكير هؤلاء محصور بالتشخيص وهم ليسوا قادرين على التحريد ، ولكن إذا راعينا النظر في هذه العبارة نقول أن نقص بعض الكلمات ناشئ على الأرجح على أن هؤلاء الناس لا يهتمون كثيرا بالمحردات لا لأهم عاجزين عن بلوغها ، ولقد اثبتت

(١) علم النفس الاجتماعي د حافظ ، جمال ص ٧٣

التجربة التي قام بها علماء النفس بين بعض القبائل الهندية ، أن لعتهم
تملك كلمات مثل (أنى) ، (أبوك) (أبوه) ولكن لا يوجد
كلمة للدلالة على الأب وكان الشخص المشغول قادرا تماما على فهم
فكرة الأب وقدم كلمة تؤدي نفس المعنى ، من هنا يتبين لنا أن الفكر
يخدم اللغة واللغة تخدم الفكر والفكر يكمل اللغة واللغة تكمل الفكر .
أما القول بأن فقدان بعض الكلمات يقابل بعض الثعرات العقلية فإن
كلام بعيد عن الصواب ، فاللغة البعاريية كما يقول فندرس ليس هي
مصدر الفعل ومع ذلك فإنه لا يخطر ببال أحد أن يستنتج من ذلك أن
البعاريين لا يتمتعون بملكه ادراك العمل الذي يدل عليه الفعل بصورة
مجردة .

وبعد فاسى استطيع القول أن الفكر يسبق اللغة من الناحية الزمنية
فالطفل يولد يفكر ثم يكتب اللغة ولا يولد بلغة ثم يكتسب الفكر ،
والفكر هو الذى يؤهله لاكتساب اللغة . وأن العلاقة بين الفكر واللغة
هى علاقة تبادلية والتأثير والتأثر وكل منهما يكمل الآخر فهما وجهان
لعملة واحدة فإذا فقد الإنسان القدرة على التفكير فقد فقد القدرة على
التعبير ، والفكر يسمو ويرتقى وبذلك تنمو وترتقى معه اللغة فكل
تطور فى الفكر بصاحبه تطور فى اللغة

الكلام والفكر

إن تحديد الرابطة بين الكلام المسموع والفكرة التي مارالت هائمة في آفاق النفس البشرية ، ما يزال يعتبر من الأمور المعقدة في مجال علم اللغة ، وأكثرها جدة في آن واحد ، وقد علمنا أن اللغة هي عبارة عن رموز أصائته يعبر بها الإنسان عن تجاربه ورعباته الحسية والمعنوية ، وقد اكسبها الإنسان دلالة معينة^(١) . فإذا نظرنا إلى ذلك من زاوية الألفاظ المردة فقط ، فإننا نجد أن كلامها هو مجرد علامة مميرة لمعنى ما يريد المتكلم بهذه اللفظة . ويجد الإنسان عندما يتدع هذه الألفاظ يوعها بقاء على ذلك تسمير بين الأشياء والظواهر ثم يختبرها لتكون في النهاية مؤننه من المعرفة ، وعدته لتبادل ما يعرف مع غيره من أبناء مجتمعه^(٢) . والذي يدفع الإنسان إلى ذلك في الحقيقة هو أن يعيش في مجتمع هو بحاجة إلى يتبادل معه الأحاد والعطاء في الماديات والمعنويات جميعاً . وقيمة اللفظة في الحقيقة هو مقدار ما تقدمه هذه اللفظة من وصوح وانتشار بين الناس .

وكما يقول الدكتور ظاظا « يتبين أن اللفظة في الكلام تشبه إلى حد كبير ورقة النقد في الاقتصاد »^(٣)

لأنه أن تعطيه قيمة اقتصادية من الذهب أو غير ذلك من القيم المصطنع عليها وبنون هذا العطاء فإن الورقة النقدية لا تخرج عن أن تكون قصاصة من الورق لا حول ولا قوة لها ، وكذلك فإن اللفظة أو

(١) الخصائص ج ١ ص ٣٣ اس حى

(٢) النسان والإنسان ص ٦٩ د حسن صاخذ

(٣) المرجع السابق ص ٦٩

الكلمة المسموعة أو المكتوبة التي لا تدل على دلالة معينة والتي لا تعطى معنى معيماً فإن هذه اللفظة لا قيمة لها في المجتمع تماماً كالورقة النقدية التي تخلو من الدعم . فهذه اللفظة أو تلك الكلمة تظل بالسبب للأفراد مجرد صوصاء لا تولد في العقل شيئاً .

والمحتوى الفكرى لالفاظ اللغة يظل ملكاً خاصاً لمن يستعملون هذه اللغة فقط وهذا يختلف عن المكر المطلق المستقل عن اللفظ فهو ملك للإنسانية جميعاً^(١) . ويحد أن قيمة اللفظة تزداد كلما كانت دلالة تلك اللفظة شاملة عامة ، يتداولها غالبية الناس ، فلو أخذنا مثلاً كلمة (المعبد) فإن هذه الكلمة رمز لمكان تقام فيه الطقوس والشعائر الدينية من أى نوع كان . ولكن إذا قلنا كلمة (الكعبة) فإنها لا تدل إلا على بناء بعبه مقدس عند المسلمين ومكانه مكة المكرمة .

وإذا بطقت بكلمة (البيعة) فالرعم من أن دلالتها ليست كالكعبة إلا أنها أصيق دلالة من كلمة المعبد ، معنى لا تدل إلا على المعبد الصغير للمسيحيين وخدمهم ، وقد توسع فيها العرب فأطلقوها على المعبد اليهودى الصغير أيضاً يقول الميرور ابادى فى القاموس المحيط : « والبيعة بالكسر متعدد النصارى » ، وقد قال الريدى فى تاج العروس : « وقيل كنسية اليهود » .

يحد ها أن الأصل فى وضع الألفاظ للدلالة على « معقول » أو « متصور » يتدرج فيه ما لا يتهاهى من المحسوسات أو الأعيان . فإن كلمة رداء مثلاً وهو ما يلبسه الإنسان ليست به نفسه ، مهما اختلف طولاً واتساعاً ، ومهما تعددت ألوانه وطرق تفصيله ومادته يستوى فى

(١) الإنسان والإنسان ص ٧٠ د حسن ططا

(١) انظر القاموس المحيط فى مادة بيع الميرور ابادى

ذلك الجلباب والعباءة والمعطف والحبة والقميص والدشداشة ،
والنصوف ، وغيره ولكي تكون الكلمة بهذا الاتساع يسعى أن تكون
التحرير الحسيه التي استحدثت منها قيمها وكيانها بوصفها وحدة لغوية
تجربة متكررة على عيانت كثيرة فيها من التشابه ما يكفى لجمعها تحت
رمز واحد

ومع ذلك يظل الاختلاف في الجرائيات والتفاصيل قائماً وممكناً في
الأفهام وهو الذي يصمم للكلمة مرونتها في الدلالة وصلاحتها
للاحاطة بقدر ما من المعرفة الإنسانية العامة وهذه الطريقة يصبح
انتهاهم ممكناً بين الناس بعضهم وبعض وإذ كانت مجموعة الفاظ لغة
من اللغات هي تلك الرموز الاصطلاحية الدالة على المتصورات
المعروفة لدى أهل تلك اللغة فإن اللغة نفسها أى الكلام المركب
المفيد . هو التصور الشفوي للسبب القائمة بين هذه المتصورات
بعضها وبعض^(٢) .

وأود أن أوضح هنا أن الدراسة الحديثة في صلة الفكر اللغوي
بالادراك العقلي قد حظيت بعناية علماء النفس والفلاسفة أكثر مما
حظيت به هذه الدراسة عند علماء اللغة ، إذ أن عملية تعلم اللغة لا
تبدأ عند الطفل من نقطة الصفر لغوياً وإنما تبدأ بسماع الطفل للغة
مستقرة لها مدلولات مسبقة ، ويعلم جيداً أن المستوى الفكرى
والعقلى واللغوي للطفل يعمو من سن إلى سن حسب تطوره الاجتماعى
والتعليمى .

(٢) انظر تاج العروس في مادة يع السيد مرتضى الريدى

(١) اللسان والإنسان ص ٧١ د حس ظاظا

وبعد ، فهناك سؤال وهو : هل يمكن أن يوجد الفكر دون أن
يوجد الكلام ؟ . وبعبارة أخرى : أليس الكلام والفكر كلاهما
مظهرين لعملية نفسية واحدة ؟ .

يقول ساير : أن للإجابة عن هذا السؤال يجب أن نفهم بوضوح
ومنذ البداية أنه حتى مع التسليم بأن الفكر في عملياته المختلفة في حاجة
إلى رموز حية يتعلق بها ، في حاجة إلى لغة على وجه التحديد . فإنه لا
يبني على ذلك أن يكون الكلام دائماً وأبداً صورة لعملية من عمليات
الفكر في معناه الفلسفي الأعلى^(١) .

وقد أوضحت سابقاً أن العصر اللغوي الأساسي في الكلام هو
اللفظة الدالة على متصور . وليس معنى هذا أن اللغة تستعمل فقط في
التعبير عن متصور بالمعنى الفلسفي . فإننا في الحياة اليومية العادية
لا نهتم بالمتصورات قدر اهتمامنا بالواقع الملموس ، بالأمور الجريئة
القائمة أمامنا وبالسبب التي تنشأ بينها . واني عندما أقول تناولت
افطاراً شهياً هذا الصباح ، فإني لا اتجشم عذاب الاجهاد العقلي الذي
تحتاج إليه عملية من عمليات الفكر . وبالعكس أشعر بمرور من
يستعيد ذكر طيبة يسوقها في عبارة مألوقة يسيرة . وبالرجوع إلى
ألفاظ هذه الجملة نجد أنها في الحقيقة تعبر عن متصور أو عن سمة بين
متصورين أو عن الآخرين جميعاً . ومع ذلك فالجملة بعيدة كل البعد
عن أن يكون لها جو المتصورات المطلقة والسبب والقضايا القائمة بينها
ونحو ذلك من أشكال الفكر الفلسفي

أقول أنه يمكن أن تعتبر اللغة أداة صالحة للتعبير في كل الظروف
النفسية والفكرية ابتداء من الواقع البسيط في الحياة العادية إلى الفكرة

(١) Edward sapir, Le Langage p 22

الفلسفية في كل تعقيداتها وعمقها . وفي كل هذه الحالات التي لا حصر لها ومهما اختلفت المواضيع ومهما اختلفت المستويات الفكرية فان مادة المفاهيم والجهار اللغوي المطالب بالتعبير عن هذه المواضيع فانه يبقى واحداً على الدوام .

وفي علاقة الفكر باللغة يسأل الدكتور كمال يوسف اخاخ في كتابه « في فلسفة اللغة » هذا السؤال : هل بإمكان الألفاظ أن تدل تمام الدلالة على المعاني الداعلية أو أنها تقصر عن تصريف كل ما في الوجدان ؟^(١) عندما أقول (أحب) هل تستطيع هذه الكلمة أن ترسم باحرفها الأربعة جوهر الحالة النفسية التي يتساعم فيها المحب مع قلب آخر ؟

واضح هنا أن العلاقة محصورة بين اللغة ومواجيد الباطن . وأن انقصية الأولى (وهي : هل اللغة توقيف أم اصطلاح) لم تنتف بهذا السؤال الثاني . إنما أرجىء حلها فقط ، فقد انقلبت من البحث في أصول الشيء إلى البحث في أصول الوجدان . ومعلوم أن الآراء ، لم تجمع في هذا المجال على موقف واحد . منهم من آمن بأن العلم بمواقع الألفاظ لا يعيدنا كل الاعادة عن حقيقة الوجدان . بذلك تصبح اللغة واسطة لا غاية (نوك) ومنهم من آمن بأن العلم بمواقع الألفاظ يعيدنا عن حقيقة الوجدان ، لأن اللفظ يعبر عنه تعبيراً كاملاً ، بذلك تصبح اللغة غاية لا واسطة (دي بونالد) ومنهم من وقف بين بين (لينتر)^(٢) .

(١) في فلسفة اللغة ص ٢٣ د كمال يوسف اخاخ

(٢) البنان والإنسان ص ٧٨ ٧٩ د حسن طاز

ولو استعرضنا معاً آراء العالم الانجليزى لوك وهو من أشهر العلماء
فى القرن السابع عشر نجد أن لوك لاحظ الرابطة المتينة بين الله
والفكر ، واستطاع أن يدرك أن العلاقة بينهما إنما هى علاقة
الداخل ، ولا يستطيع أن يفصل بين هذه العلاقة بحال من الأحوال .

ونلخص نظرتة فى العلاقة بين اللغة والفكر كما يلى : « إن العلاقة
التي تربط الفكر بالكلمة هى علاقة صحيحة ، الفكر والكلمة جسد
واحد . لا يحصل فكر بدون ان تحدث لغة ولا تحدث لغة لا تكون
داتها فكراً » (١) .

واستناداً إلى ذلك يقول (دى بونالد) اللغة ليست من خلق البشر
الناس لم يتفقوا فيما بينهم على أن يكون ثمة لغة فكان هناك لغة .. وهذا
التفسير بعيد كل البعد عن الحقيقة . ذلك أن الإنسان لا يقدر على
خلق شيء ما لم يكن لديه فكرة صريحة عنه (٢) ولكي يحصل على هذه
الفكرة اصرحه يسعى له أن يعبر عنها . إذن اللغة واجب وجود لمشأ
اللغة داتها مما يفيد أن اللغة ليست من صنع البشر بها هبة من الله
لقد أعطى الله للإنسان قوة الطوق والتعبير مد أن سوى اسماً
(حقق الإنسان علمه اللى) مد أن تحرك الحركة الأولى

لذا فإن مع فى الحصة عندما نقول أن الفكر سابق للكلمة الفكر
داته كلمه ، الإنسان لا يفكر إلا لأنه إنسان متكلم ، فحين نتحدث
بـ لغتنا حينئذ نكون تفكير الإنسان بيه وبين نفسه .

(١) دى بونالد ، ص ١٠٠ . (٢) دى بونالد ، ص ١٠٠ .

والمكر كما قال الدكتور كمال الحاج . « تعبير وراء الشمتين الصامتين ، المكر حديث باطني ، والحديث تفكير بصوت عال »^(١)

وبعد هذا العرض لآراء العلماء حول العلاقة القائمة بين الفكر واللغة ، أقول أن الكلام بالنسبة للفكر هو عملية مصاحبة له غير حادثة له ، هو رفيق لهذا الفكر يعمل بدأب وتواضع على أن يرتفع إلى مستواه .

وإذا سألنا أنفسنا هل نستطيع أن ن فكر بدون لغة ، بدون أن يستحضر الإنسان في ذهنه ألفاظاً معينة ؟ في الحقيقة ليس من السهل على الإنسان أن يعقل ذلك لأن اللغة للمكر هي كالأرقام للحساب ، فلا تتم عملية حسابة بدون الأرقام ، كذلك لا يمكن تصور فكر بدون ألفاظ .

(١) في فلسفة اللغة ص ٢٤ د كمال يوسف الحاج

تطور اللغة مع تطور الفكر

قنا أن اللغة هي وعاء الفكر تحفظه وتعبّر عنه وترقى برفقة ،
وسنحاول هنا إظهار العلاقة الوثيقة بين الفكر واللغة حيث نجد أنه
عندما يعمو الفكر ويتطور فإنه سيأخذ بيد اللغة معه وسيطورها لتكون
هذه اللغة حلقة للتعبير عن هذا الفكر السامي المتطور . أن الفكر هو
ذلك السر السرى المتطور دائماً المتطلع إلى الكمال هذا الفكر يحتاج
في رحلته هذه إلى لغة لتعبّر عنه إذن لابد لهذه اللغة من السمو والتطور
إلى الدرجة التي تلتقي فيها مع هذا الفكر . وإن الكلام ظاهرة مرافقة
لفكر وسورد هنا أمثلة لبعض الألفاظ طورها الفكر من اللفاظ حسية
إلى ألفاظ مجردة وذلك لتعبّر عن سموه وتطوره .

لو أحدا كلمة (المروءة) أصلها في اللغة من كلمة المرء ومعناها
الرجل المكتمل ، وهذه اللفظة في معناها الحسي لا تدل إلا على
الشخص وهذه اللفظة تدل على ما في الرجل من صفات مثل
القوة ، الهمة ، الشعور بالرجولة ، والسخوة ، والشهامة ، والامانة
وغيرها من الدلالات الحديثة .

وكلمة « الروح » : فأصلها من نفس أصل لفظه الريح ، وهو
الهواء ، ثم النفس الذي تردده الإنسان في صدره شهيقاً ورفيقاً ، وقد
سمى كل ما تحمله الريح ونمضي أن يشمه الإنسان عند النفس رائحة ،
وسميت الراحة للبد لا بسببها وانسائها . ولما كان تردد الريح في صدر
الإنسان هو أوضح العلامات على أنه حي لم يموت ، اشتق من ذلك لفظ
الروح بمعنى سر الحياة المجدد المدم في الكائن الحي ، ولاشتقاق الروح
من الريح جاء لفظها في القرآن الكريم مستعملاً مع الفعل . فصح في قوله

نعالى : « ونفحنا فيه من روحنا »^(١) وكلمة « النفس » أصلها من مادة النفس أى استنشاق الهواء شهيقاً ورفيراً ، ومن ذلك استعملت النفس بمعنى الكائن المحتوى على سر الحياة ، لأنه ينفس ، ثم سميت المرأة التى وصفت حملها بفساء ، أنه حرحت من بطنها نفس أخرى حية . كل ذلك تطور مع احتياجات الفكر للتعبير ولم يزل وحياً من السماء على الإنسان دفعه واحدة .

ولفظ « العقيدة » وأصلها من الفعل عقد ، وهو أن يربط الإنسان عقدة في حبل أو قطعة من السبيح ، والعقيدة هى الشيء الثمين الذى يصر ويربط ويعقد عليه الرباط حتى لا يصيب ، وكذلك كان الرجل القديم يعقد حيطاً ، أو حصلة من الشعر أو الصوف ، على أصبعه ليتذكر شيئاً هاماً ولا ينساه ، ثم استعملت كلمة العقيدة استعمالاً فلسفياً للدلالة على ما استقر في قلب الإنسان من فكرة دينية أو سياسية أو اجتماعية وبحرص عليها الإنسان ويتعصب لها ، وكأنها شيء ثمين عقد عليه قلبه حتى لا يصيب .

وكلمة « العقل » بمعنى الربط أو ربط الدابة بحل اسمه العقال وقال صلى الله عليه وسلم « اعقلها وتوكل » أربطها بحبل وتوكل . والعقال الذى يوضع على الرأس لأنه بعقل « الحطة » ثم نقل من معناه الحسى إلى المعنى الفلسفى وهو القوة الخفية في النفس البشرية التى تمسك الإنسان فلا يجمع ولا يضل ويقال فلان عاقل وفلان يعقل ، وعقل الدواء الطير أى مسكه . وكلمة « الشرف » مأخوذة من الشرفة وهى الارتفاع لأن من يصف عليها يشرف على غيرها أن يستطيع أن يكشف ما دونهما فانتقلت من المعنى الحسى إلى المعنى المجرد ، ومنها

(١) الإنسان والإنسان ص ٨١ د حسن طاص

الإشراف على البحوث العلمية والإشراف الإجتماعي ومحوها ، ثم أصبحت تدل على مجموع حيثيات بعضها بالنسب وبعضها بالحسب تجعل الإنسان ، معنوياً منزلة أرفع من غيره ونجد مثلاً لتطور الدلالة مع تطور الفكر في كلمتي « المعروف والمنكر » . فمعناها التجريدي هو الخير والشر ، أما المعنى الحسي المادي القديم لهما ، المعروف ما يعرفه الناس ، والمنكر ما لا يعرفه وفي الحياة البدائية كان الإنسان لا يعرف إلا أهله وذوي قرابته وبني قبيلته أما ما عدا ذلك فلا يعرفه ولا يطمش إليه . ومن هنا انتقل معنى الكلمتين إلى المعنى التجريدي فأصبح المعروف والمنكر بمعنى الخير والشر .

من هذه الأمثلة السابقة يتضح لنا أن كل ما في اللغة من اشتقاق أو توسيع أو تضيق في الدلالة ، أو نقل لها من المحسوسات إلى معنويات إنما كل ذلك من صنع البشر ، وهذا نتيجة حتمية لتطور الحياة وتطور الفكر ونحوه وهذا نجد أن اللغة تمت وتطورت مع الفكر لتكون أداة المعبرة عنه ، وفي ذلك يقول ساير : « اما تفكر دائماً من خلال الفاظ ستحصرها في أذهاننا »^(١) .

ثم يؤكد ساير على العلاقة اللزومية بين اللغة والفكر ، وعموم هذه العلاقة وشيوعها في النوع الإنساني على اختلاف اجاسه والوانه ودرجاته الحضارية إذ يقول : « ان الانسان هو المخلوق الوحيد العاقل المفكر ، تبين لنا إلى أي حد ترتبط اللغة بالفكر ، وإلى أي حد كان المعلم الأول (ارسطو) دقيقاً عندما عرف الإنسان بأنه « الحيوان الناطق » وشرح الناطق بأنه المفكر »^(٢) .

Edward sapir le langage p. 24.

(١)

(٢) ارجع السابق .

وفي الحقيقة أن اللغة هي الواقع المباشر للفكر أي أن جوهر الفكرة يعلن عن نفسه بواسطة الألفاظ ، ولا وجود للأفكار خارج نطاق من اللغة ، وأن الاتصال الأبدى بين الفكر واللغة أوجد حالة اعتماد كلي من الفكر على اللغة بحيث أصبح الإنسان غير قادر على جميع شتات الفكر إلا داخل أسوار اللغة وبهذا نجد أن اللغة هي المادة الطبيعية للفكر .

وصدق الله العظيم حيث قال : « خلق الإنسان علمه البيان » .

والبيان هنا هو الأعراب عما في النفس وعما يدور في الفكر بواسطة اللغة وهذا يؤكد لنا ما سبق ذكره من العلاقة اللغوية بين الفكر واللغة .

قيمة الفكر

إن الإنسان يتميز كما ذكرت عن جميع الحيوانات الأخرى بالقدرة على التصوير والتجريد والتحليل والتركيب . وإذا نظرنا إلى بعض الطيور والفردة والقطط والكلاب فاسا نجد أن سلوكها يسم عن شيء من الدكاء والفكر ومعنى ذلك أن الفرق يساوي بين الحيوانات إنما هو في الدرجة وكل ما في الأمر أن التطور الفكري العظيم الذي حققه الإنسان يدعو إلى الاعتقاد بأن الفرق شاسع بين الحيوانات في سلم التطور الفكري ، بحيث أن مجرد المقارنة لا تصح ، والشيء الذي يقلل من شأن التفكير لدى الحيوانات هو أن مظاهره لا تنكشف لنا إلا من الخارج بواسطة تجارب مختلفة وعندما نطرق أحيانا إلى سلوك كلب أو قرد فاننا نحس بأن الشيء الوحيد الذي ينقصه هو النطق وهذا يأتي إلى صلب الموضوع . وهو أن الإنسان دون الحيوانات الأخرى مرود بجهاز يمكنه من توصيل أفكاره إلى غيره من الناس وعلى هذا فلا يجوز الفصل بين اللغة والفكر ، ومن المستبعد جدا أن تحرر البشرية ما أحررته من التقدم في مضمار الحضارة لو لم يكن لها لغة تخدم الفكر وتقدم له القوالب التي تصاغ فيها المعاني أن اللغة إذن أداة لا عسى عنها من جهتين : أولا أنها وسيلة لابرار الفكر من حير الكتان إلى حيز التصريح ، وثانيا فهي عماد التفكير الصامت والتأمل ولولاها لتعذر على الإنسان أن يسير الحقائق إلى عمق أعماقها حينما يسلط عليها أصواء فكره^(١)

إن العلاقة بين الفكر واللغة كما ذكرت إنما علاقة وطيدة ، فاللغة

(١) التعمير والتحكم ، ص ٤ ٢ شوشر

تقدم للمكر تعاريف جاهزة ، وتصف الأشياء بحصائصها حتى لا تتداخل مع غيرها ، وتساعد المكر في عمله ، إذ تروده بصيغ وتعابير معروفة وتضع تحت تصرفه أساليب مدروسة .

على أنه لا يسعى من ناحية أخرى أن نسي . كما يقول (جيسرس) « أن جماعة من أعمق المفكرين كثيرًا ما اشتكوا من أن لغة قومهم كانت في بعض الأحيان عائقًا لهم عن التفكير في شيء من الأشياء إلى أعمق أعماقه فاللغة بمفرداتها وصيغها الثابتة قد أحيوت الفكر على أن يسلك سبيلًا مطروقة حتى أهم اضطروا إلى اقتفاء آثار الأولين ، وآل بهم الأمر إلى أن يكون تفكيرهم أشبه ما يكون تفكير من سبقهم »^(١) .

أن هذا القول مقبول ، ولكنه لا يعد اعتراضًا بل هو مجرد ملاحظة ثم أنه ليس صحيحًا على علته . فالمفردات والصيغ الثابتة قليلة نسبيًا في اللغة ، ولعل (جيسرس) يشير بها إلى التعابير النقطية المحفوظة عن طهر قلب وإلى العادات النقطية الراسخة ، فهذه التعابير الجاهزة وهذه العادات مفيدة لأنها تجعلنا نتكلم من غير عناء ولا مشقة ولا يكر أحد أنها قد توقع المتكلم في الخطأ وتجعله يقول غير ما بوى ، لأنه قد يجد نفسه مساقًا بحكم العادة النقطية لإتمام الجملة على غير ما يقتضيه المطلق إلا أن هذه العادة ماهرة ، وقل أن تحدث في حالة التفكير لأن المعروف أن الإنسان حينئذ يسهل في الكلام ويسير أفعاله ويتقن تعابيره فهو لا يسرد كلامًا محفوظًا ، ولا يساق وراء عادة متأصلة ، بل يشيء الكلام انشاء ويركه جملة فجملة ويردد أحيانًا في ما سيقول ، ويعيد الطر في ما صدر عنه فيصححه أو يندرك شيئًا منه

(١) حياة اللغة ص ٧٠٦ جيسرس

وهكذا فإن اللغة ترود الفكر بقوالب يطبع فيها ويسبك ، ولولاها ما
كان ليخرج من حيرالكمون ولأمر ما سميت لغة الضاد باللغة العربية
فهى من الأعراب أى الافصاح عن مكنون الفكر .

السمات المشتركة بين اللغات

ان معظم لغات البشر تشترك في خصائص معينة وان هناك مفاهيم أساسية مشتركة لدى جميع اللغات ، ولكن صبح أن معظم اللغات أصبحت مختلفة متغيرة بعد ما تفرعت وتشعبت وتعددت ، إلا أن استطيع القول بأنها ظلت تحتفظ بخصائص ثابتة مشتركة هي التي نطلق عليها المعاني الكنية

نقول إذا كانت هناك خصائص مشتركة بين اللغات لم تتغير رغم التطور فلماذا لم يكشف العلماء عنها حتى الآن ، نقول أن البحث في هذا الميدان قد تحلف كثيرا ، لأن الشيء الذي كان يهتم به العلماء هو نقاط الاختلاف لا نقاط التلاق ، وسوف أورد هنا بعض الأدلة التي تثبت بالرغم من تمايز اللسان أن هناك امكانية التفاهم بين الشعوب رغم اختلاف لغتهم .

الدليل الأول : أن هناك مفاهيم كونية واحدة ، ذلك أن كافة الناس يسكنون في كوكب ارضي واحدة ، فمن المتوقع أن نلاحظ نوعا من التشابه بين اللسان أو على الأقل نوعا من التوارى في تسمية الأشياء ، أي أن كل اسم في لغة موحود بطوره في لغة أخرى ، وخاصة منها ما يتعلق بالأرض ، والسماء ، والبرد ، والحرارة والمطر ، والرياح ، والساتات ، والليل والنهار . الخ . من الاسماء والمسميات

والدليل الثاني وعود مفاهيم بيولوجية واحدة ، وفي هذا المجال يقول العالم الفرنسي مارتيني : « بما أن كافة الناس يسكنون في كوكب واحد ويشتركون في كونهم جميعا أبناء بشر وهذا الأمر يقضي وعود نشابه بينهم من حيث الذوات والصفات ، فمن المتوقع أن

نلاحظ نوعاً من التوازي في تطور جميع اللغات»^(١) .

وستنتج من هذا القول أن هناك مفاهيم بيولوجية مشتركة تتعلق بظروف الحياة على سطح المعمورة وقد لخصها بعضهم في سبعة ميادين رئيسية وهي : الأكل ، والشرب والتنفس والنوم والافراز ودرجة الحرارة والجس (ذكر أو أنثى) ويمكن أن يضاف إلى هذه المفاهيم البيولوجية ما يلزمها من سمات عضوية ، فمفهوم الأكل يلزمه مفهوم الأسنان والفم واللحاه واللسان والمعدة والبلعوم .. الخ .

وهكذا نلاحظ أن هناك مستوى بيولوجيا تلتقى فيه جميع اللغات . فمن المستبعد مثلاً ألا تتفق مفاهيم الناس عن مختلف أقسام الشجرة الرئيسية وهي الجذور والجذع والساق والأغصان والأوراق . إلا أن هذا لا يمنع أنك قد تجد لغة تفرق بين العشرات من أنواع الأشجار وتصنع لكل منها اسماً خاصاً مثل شجرة الزيتون والتين ، والعنب والخوخ والتوت ، والكرز . بينما تجد لغة أخرى افقر منها من حيث المفردات بحيث لا يتوفر فيها سوى ثلاثة أو أربعة من أسماء تلك الأشجار . وبعبارة أخرى فإن الظروف الطبيعية التي تعيش في وسطها توحد يساً لغوياً إلا أن حضارة كل شعب وتجاربه المكتسبة تساعد يساً من حيث أساليب التعبير .

والدليل الثالث : قام على وحدة الإحساس والإدراك وقد عبر عن ذلك ابن جني حين قال : « إن طريق الحس موضع تتلاقى فيه طباع البشر ، ويتحاكم إليه الأسود والأحمر »^(٢) ورغم ما قد يوحد بين الناس

(١) محاضرات في علم النفس المعرفي د . حمدي بن عيسى ص ٤٤

(٢) الخصائص ابن جني ج ١ ص ٩٠

من اختلاف أو تفاوت في درجة الإحساس والإدراك وهذا أمر طبيعي
فانه ولا شك يوجد حد يستوى فيه الجميع .

وهذا الأمر يكاد يكون طبيعياً ، إذ أنه من المتوقع - مادام التركيب
الفيزيولوجي واحداً أن تكون احساسات الناس وإدراكاتهم بدورها
واحدة ، وهذا توحد جملة من المفاهيم الحسية الإدراكية المشتركة حد
عن ذلك مثال الألوان : فليس هناك ما يبرهن على أن مفهوم اللون
الأحمر عند اليهود وغيرهم من الشعوب ما يخالف مفهومنا عنه ، وكل
ما في الأمر أن كل شعب له عاداته وتقاليده اللغوية الخاصة في تسمية
الألوان ففي العربية نجد أمثال هذه المفردات ، عسلى رمادى ، حرونى
بى كستائى ، برتقالى ، كموى ، مشمشى ، سماوى الخ . ولكن
هذا لا يعنى أن العربى يدرك هذه الألوان على غير ما يدركها الفرنسى
أو الانجليزى ، ولكن نقول أن عادات التسمية ليست واحدة ومن هذا
القبيل أيضاً مسألة إدراك المكان والزمان فما لا شك فيه أن توجد
مفاهيم مشتركة بالنسبة إلى المسافات إلا أنك قد تجد كل شعب يقدر
المسافات بحسب عاداته اللغوية وتقاليده الحضرية فالفرسخ والكيلو
متر والميل والذراع والمتر والمدان والياردة وحدات قياسيه فيها
مدلولات معينة عند أصحابها ولقد وجد الألمان صعوبة في تقدير
المسافات بالأميال حتى ولو كان يعرف كيف يمشى إليها إلى كيلو مترات ،
وما ذلك إلا لأنه اكتسب عادات لغوية معينة ارتبطت بالتحركة
والممارسة . إلا أنه إذا عاش في انجلترا مثلاً فيضطر حكم الحياة الحديثة
التي يعيشها أن يربط مفهوم الأميال بالتحركة الشخصية وحينئذ
سيدرك المسافات كما يدركها الانجليزى وإدراك الزمان تقدم - أدنى
أخرى عن وجود مفاهيم مشتركة ، فمن المؤكد أن الناس في جميع
الأقصار يدركون المقصود بكلمة العجر أو الصبح أو ظهر أو مساء

عشاء أو شروق الشمس أو عروبها أو اشتداد الحرارة أو البرودة
فكل هذه لمفاهيم موحودة في الأذهان قبل اختراع الآلات الدقيقة التي
تقيس الزمن أو الحرارة ، وإذا نظرنا إلى كل شعب على انفراد نجد أن
الإنجليز يقولون مثلاً : مضت عشر دقائق على الثامنة أو بقيت خمس
دقائق حتى تسبغ الساعة التاسعة أما العربي يبدأ في تحديد الساعة ثم
الدقيقة .. إلخ .

إن هذه الفروق الطفيفة في التصور لا تمنع من القول بأن هناك
مفاهيم إدراكية مشتركة .

الدليل الرابع : ان بالنظر إلى كونا بشرا ذوى نفس واحدة فانه
من الطبيعي جدا أن تكون لنا مفاهيم نفسية مشتركة ، وأن من يدرس
آداب مختلف أمم الأرض يلاحظ بدون شك أن الناس مهما تعددت
أوطانهم ، يعانون نفس التجارب الشعورية ويعبرون عن نفس الآمال
والأحلام ، فأنا حينما نقرأ قصيدة لشاعر ياباني أو إنجليزي أو فرنسي
نشعر بنوع من التجاوب العاطفي مع هذه القصائد الشعرية والدليل
على ذلك أن عواطف الناس منذ القرون العابقة هي واحدة لم تتغير لأن
القلب هو منبع العواطف لم يتغير على مر الزمان .

وهذا ما يجعلنا نتفاعل ونتجاوب مع ملحمة هوميروس ومع
اعتداليات النابتة الديباني ومع فلسفة أبي العلاء المعري أقول ورغم
مرور الزمن واختلاف الأوطان وتصور الحياة فاما لا يزال شعر كلما
قرأنا آثارهم بأنهم أقرب إلينا من كثير ممن يعيشون الآن عصرنا ومن
هم شوكاء في موطن الواحد .

والدليل الخامس : هو وجود معنى كنهه لساني أي أن اللغات
والأسس بوحدها هي حصائص كثيرة من الشبان ، ونجد أن علماء اللغة

قد ابرزوا نواحي الاختلاف ولم يهتموا إلا قليلا بنواحي الاتفاق .

والأول ما نلاحظ في باب الاتفاق ، أن الصوت الشرى هو الوسيلة المستعملة في التحاطب بدلا من الایماء والاشارة ، وأن الرموز اللغوية (الحروف) في جميع اللغات محصورة العدد . وأن تلك الرموز تنظم فيما بينها مقاطع صوتية وكلمات وحملات وزيادة على هذه السمات المشتركة التي تكاد تكون من البديهيات توجد أيضا مفاهيم لسانية واحدة في النحو والمعدرات والمعاني . ففى النحو لاحظ الباحثون أن مقولات العقل كما حددها ارسطو لها نظيرها في القواعد السحوية لأغلب اللغات .

إذ أن ما يصدر عما من كلام يتعلق بالماهية ، أو بالحدث ، فمن توشيح الماهية نشأت التسمية وعن التصريح بما جرى (أو بما حدث نشأ الفعل)^(١) . فالاسم والفعل أن من المفاهيم اللسانية العامة ويمكن أن يقال في مجال الرد بأن بعض اللغات لا توجد فيها أفعال فكيف يصح القول بأن الفعل من المعاني الكلية ، والجواب على ذلك أن الفعل بالتعريف هو ما دل على الحدث مقترنا بالزمان فهذه اللغات التي استغنت عن الفعل ظلت مع ذلك تعبر عن فكرة الزمان . فالجملية الاسمية الآتية « البحر أمامك » لا تشتمل على فعل ، ولكنها تتضمن معناه لأن الظرف (أمام) متعلق بمحذوف تقريره كائن أو موجود وكل من الكلمتين الأخيرتين قد دلت من حيث ورها وصيغتها الصرفية على زمان الحاضر .

وهناك سمات مشتركة بين اللغات وأهمها وجود الضمائر فيها ، والمعروف أن الضمير يوب مناب الكلمة الدالة على الكائن ، فمجد أن

(١) ابن جنى الخصائص ج ١ ص ١١٩ .

اصمائر متشرة في كل لغات العالم وهذا دليل آخر على أن هناك صفات مشتركة بين اللغات وهناك دليل سادس وهو أن جواب كثيرة من الحضارة كالتربية والتعليم والدين والتقدم التقني جعلت الناس يشتركون في كثير من المفاهيم الحضارية ومما أدى إلى سهولة انتشارها المواصلات السهلة بين الدول والاتفاقيات الدولية والمؤتمرات المختلفة من رياضية واقتصادية وسياسية وعلمية الخ . كان لكل هذا الأثر في أن يتقل الأساس من دائرته الطبيعية إلى دائرة أرحب وأوسع فيتعرف على شئون الآخرين في شتى مجالات الحياة الاجتماعية فحد اليوم في عالمنا العربي جامعة الدول العربية وما يشتق عنها من مؤسسات ويحد في امريكا منظمة الوحدة الأمريكية وفي أوروبا السوق الأوروبية المشتركة وما يشتق عن كل هذه من مؤسسات أخرى كل هذا كان له أثره في الاضافات الجديدة لدى الكائن البشري في أي قارة كان .

ثم أيضا نجد أن العلاقات بين الدول وبعضها البعض له أثره من حيث تقليد الشعوب لبعضها البعض في سلوك المأكل والمشرب والملبس وغيرها ، حتى أننا نجد انحطاطا دخليه من السلوك عينا أحداها من غيرها من الأمم والشعوب ذات العلاقة بنا أقول بعد إن العلاقة بين اللغات قائمة وإن هناك سمات وخصائص مشتركة بين معظم لغات العالم فالرغم من وجود الموارد والبعد بين الأوطان وبالرغم من تباين الناس فإن هناك قاسما مشتركا بين اللغات وخاصة على مستوى الفكر وجاء أن العالم الآن أصبح تواقفاً إلى التعارف والتألف خارج حدود الوطن ونجد أن الترجمة قد أحدثت انعادا جديدة في انعام ودلت من أحسن التعرف على أفكار الآخرين وأقول أن تعدد اللغات في العالم لا يؤدي إلى انعاد ولما بل هو عباره عن التنوع في الوحدة وحدة الفكر وفي ذلك انتوع الخير كل الخير لانا نعلم أن لتنوع هو سر

الحياة وهو استمرارها ونجد أن اللغة هي الوسيلة الوحيدة المعبرة عن
هذا الكون وهي لذلك دائما تسير مع الفكر وترتقي برقيه وتتكون
بلونه لأنها وسيلة الفكر الوحيدة للتعبير والتبليغ وما أعظمها من
وسيلة

الفصل الثاني

الكلام واللغة واللسان

كثيراً ما يستعمل عبارتي الكلام واللغة في معنى متقارب ولكن
يسجد أن هناك فرقاً بين الكلام واسعة وسوضح ذلك في هذه
الصفحات . نقول ما الكلام ؟ « الكلام هو ما يصدر عن الفرد من
ألفاظ سواء أفاقت أم لا » .

ما اللغة : « هي الألفاظ التي تصدر عن الفرد والجماعة مؤدية
معنى من المعاني فهي سنوك لمظي لدى الأفراد والجماعات .

وسأعرض هنا نظرية دي سوسير إذ يصطليح ثالوثاً خاصاً به
يتضمن تصورات ثلاث متكاملة .

١ - أن ما يسميه دي سوسير LeLangage « اللغة » هو اللغة في أوسع
معانيها أي اللغة باعتبارها ظاهرة إنسانية عامة .

٢ - أن ما يدعوه La Langue (اللغة المعينة : أي العربية أو الإنجليزية
الخ . فهو يصمم على وجه الخصوص بنظام المفردات والحو في أي
عصر من عصور تاريخ لغة معينة . و Language أي هذه اللغة أو
ذلك عند دي سوسير جماعية أو اجتماعية)

٣ - أما التصور الثالث الذي يعبر عنه دي سوسير بكلمة Laparole
الكلام فمعنى به اظهار لفرد للغة La Langue وتحقيقه اياها عن
طريق الأصوات المنطوقة أو عن طريق العلامات المكتوبة .

(١) عوامل العلم المعرفي د محمد محمد ص ١١٥

وما يدعوه دى سوسير La Parole (الكلام) فردى وهو واقع تحت سيطرة الفرد .

أما في استعمالنا عبارة اللغة العربية والتي تعنى اللسان العربى فاما نجد فرقاً واصحاحاً بين الكلام واللغة واللسان ، وذلك ان الكلام يطابق المصطلح الفرنسى الذى ذكرته عند دى سوسير Parole ، واللغة تطابق La Langage ، أما اللسان فيطابق La Langue ، وسوف نوضح الفرق بين هذه المفاهيم الثلاثة .

يقول الدكتور حفي بن عيسى في كتابه محاضرات في علم النفس اللغوى « ان الباحث إذا ما تصدى لدراسة لسان قوم فأما أن يكون موضوعه هو اللغة كظاهرة اجتماعية وكأداة يتم بواسطتها التفاهم بين أبناء الأمة الواحدة أو أن ينصرف إلى دراسة الكلام ، وهو نوع من السلوك الفردى ويتجلى عن طريق كل ما يصدر عن الفرد من أقوال ملفوظة أو مسطورة »^(١) .

فالكلام واللغة إذن هما في الواقع جانبان متاظران لظاهرة واحدة أما الأول فهو الجانب الفردى من السلوك اللفظى وأما الثانى فهو السلوك الاجتماعى .

أما دراسة الباحث للغة ، فهي دراسة ظاهرة اجتماعية يحاول من خلال دراسته أن يتوصل إلى السمات المشتركة بين الأفراد في كلامهم كى يحكم بأن قوماً من الأقوام لهم لغة مشتركة يتفاهمون بها .

وفي تعريف ابن منظور للغة أن اللغة حدها أنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم وهي فعلة من لغت إذا تكلمت أصلها لغوة

(١) محاضرات في علم النفس اللغوى من ٧ د حفي بن عيسى

« وهكذا ترى أن من خصائص اللغة التطور والتغير حسب الأقوام الذين ينطقون بها ، لأن اللغو « هو ما كان من الكلام غير معقود عليه » وهو أيضا « مالا يعتد به » لتغيره من حال إلى حال .

أما اللسان : فهو النموذج الإجتماعي الذي استقرت عليه اللغة أو هو السلوك السوى لاغلبية عظمى من أبناء الأمة الواحدة . وذلك لأن الفرد حينما يتكلم فانه ولا شك يحرف قليلا عن لسانه القومي . ونجد أن الفرد يحاول دائما أن يكون لسانه قريبا من الفصحى لأنها النموذج المثالي الذي يسعى إليه الفرد . ونجد أن لسان أمة من الأمم يشتمل على عدة لغات ، واللغة في حد ذاتها تتألف من كلام كل فرد ، فاللسان العربي مثلا يتضمن عدة لغات وأن كانت هذه لا تختلف إلا من حيث الجزئيات والتفاصيل .

فهناك لغة قريش ولغة تميم ولغة أهل الحجاز .. إلخ . ونرى اليوم اللسان العربي له مميزات بحسب الاقطار العربية إذ يستطيع أن يميز بين لغة أهل الشام عن لغة أهل مصر أو أهالي المغرب . وهذا من حيث المد أو الامالة أو تعطيش الحليم .. إلخ . من الفروق اللهجية المختلفة وأحيانا تطلق كلمة اللغة ويراد بها اللسان ، كقولنا اللغة العربية وما ذلك إلا على سبيل التوسع في المعنى ، وإلا فإن المقصود باللسان مفهوم أعم كما رأينا ، نجد أن واصعي المعاجم عندهم مفهوم خاص عن اللغة ، عندما يشيرون بصدد شرح إحدى الألفاظ إلى أنه توحد فيها لغات .

وبناء على هذا نقول أن الكلام واللغة كل منهما سابق للسان من حيث الشئ لأن اللسان لا يستقر إلا بعد مصي أحوال ، فاللسان يتأثر بالكلام واللغة ويؤثر فيهما ، فهو يتأثر بهما لأنه نتاج كل ما يصدر عن

الأفراد من أقوال لأنه يتلقى رصيده اللغوي من الأفراد والجماعات
ويؤثر فيهما لأن المتكلم يحاول دائماً أن يتقن أساليب التعبير ويقلد
البلعاء إلى أن تصبح لغته ملكة راسخة وأداة مطواعاً لفكره .

(٢) وظيفة اللغة

لا شك أن وظيفة اللغة الأساسية هي التعبير عن الاحاسيس وتبليغ الأفكار من المتكلم إلى المخاطب ، فاللغة بهذا الاعتبار وسيلة للتفاهم بين البشر ، وأداة لا غنى عنها للتعامل بها في حياتهم .

ولقد سبق أن قامت الدراسات اللغوية على أساس أنها فرع من الفلسفة أو فرع من علم النفس ، أو فرع من الانثروبولوجيا الاجتماعية الخ . وحلاصة ما أدت إليه هذه الدراسات هو اعتبار اللغة وسيلة للتعبير عن الأفكار والعواطف والرغبات أو وسيلة لتوصيل الأفكار .. الخ . ويقول (هنرى سويت) « ان اللغة هي التعبير عن الأفكار بواسطة الأصوات الكلامية المؤتلفة في كلمات »^(١) .

ومجد أن ساير يذهب نفس المذهب إذ يقول : « اللغة وسيلة انسابية خالصة و غير غريزية اطلاقا لتوصيل الأفكار والانفعالات والرعات عن طريق نظام من الرموز التي تصدر بطريقة ارادية »^(٢) .

ولا يزال بعض المحدثين من علماء اللغة يظنون إلى اللغة هذه النظرة ولكن « الأفكار » و « الانفعالات » و « العواطف » والرغبات .. الخ . مصطلحات منقولة من دراسات أخرى غير لغوية في أصلها ولو جاز أن « الكلام » في بعض استعمالاته تعبر عن « الفكر » فانه ليس كذلك في جميع استعمالاته أو في معظمها ، فليس ثمة توصيل للأفكار أو تعبير عن أفكار في لغة التحيات ولغة التأديب

(١) Henry Sweet - New English Grammar Language in the expression of ideas by means of speech sounds Combined into words.

(٢) انظر اللغة والعصم ٢ - سكرات ص ١٠

ولغة التدريب الرياضى والعسكرى مثلا .

ان أصحاب هذه النظرية فى اللغة على اختلافهم يرون أن : الوظيفة الأساسية للغة^(١) هى أنها وسيلة من « الاتصال » أو « التوصل » أو « النقل » أو « التعبير عن طريق الأصوات الكلامية »^(٢) . وأن ما توصله اللغة أو تنقله أو تعبر عنه هو الأفكار والمعاني والانفعالات والرغبات أو الفكر بوجه عام . وأقول على أن حصر جميع وظائف اللغة فى غرض واحد لا يخلو من معالاة وسجد أن التعبير يتخذ عدة صور ، ولا يمكن أن نطلق على بعضها تسمية اللغة على سبيل المجاز وسنجد أن التبليغ مفهوم أعم من اللغة إذ أنه يمكن أن يحدث بعدة طرق من حملتها اللغة وسجد فى السلوك اللغوى للإنسان ما لا يمكن أن يدرج فى الوظيفة السالفة الذكر فهناك مثلا المونولوج أو الحديث الداخلى فليس القصد منه التبليغ بل هو تنفيس عن الكرب إلا إذا اقترضا على عرار ما فعل سائر أن : « المتكلم والسامع مدحجان فى شخص واحد ويمكن أن يقال عنه بأنه ينقل الأفكار إلى نفسه »^(٣) . ومما لا أثر فيه للتبليغ أيضا ما يسمى بالمناجاة من صلاة ودعاء واستعمار وذكر الله عز وجل ، وما إلى ذلك فلا يوجد هنا تبليغ وليس له إلا طرف واحد ولكن تستطيع القول بأن الحوار حاصل بين الفرد وحالقه .

وبعد فإنى سأعرض وظائف اللغة على النحو التالى

١ الوظيفة الاجتماعية : أن اللغة سلوك المحركات الشريفة وتجارب الأمم فى كلام مفهوم يمكن أن يستمد منه تعبير ويدون التراث الثقافى

(١) نظر اللغة وشمع د السمع ص ١٢

ونحفظ به جيلاً بعد جيل كما أنها تساعد الفرد على تعديل سلوكه كي يتلاءم مع المجتمع فهي تزوده بالمعارف المناسبة لكل مقام . وعندما يتعلم المرء تلك المعارف ويرددها في الظروف المناسبة فإنه يحلّول أن يخضع سلوكه كفرد لما يقتضيه المجتمع .

٢ - الوظيفة النفسية : فاللغة عو وسيلة للتحليل فبواسطة اللغة يستطيع الفرد أن يحلّ أية فكرة إلى اجزائها فإذا سألك شخص عن وصف حادثة شهدتها فأنك ستجيب عن الأسئلة الآتية : ماذا وقع ؟ ومن هو الشخص الذي وقع له الحادث ؟ ومتى ؟ وأين ؟ وكيف ؟ ولماذا ؟ وما هي الظروف المرافقة للحادث وملابساته ونتائجه ؟ ومتجدد في اللغة صورة صادقة للإجابة عن كل هذه الأسئلة ويرى العالم النفسى الشهير ثورنديك أن وظيفة اللغة النفسية ليست في التحليل والتركيب بقدر ما هي في إحداث استجابات لدى الأفراد فاللغة إنما هي أداة نستعملها لاثارة أفكاره وعواطف لدى الآخرين . فهي إذن عاضدة لقانون الله والاستجابة علما بأن اللية في مجال اللغة هو الكلمات والاستجابة هي السلوك اللغوى الناتج عنها .

٣ - الوظيفة الفكرية : إن الإنسان يمتاز عن سائر الحيوانات بالفكر والقدرة على التصور والتخيل والتحليل والتركيب . وإذا نظرنا إلى بعض الطيور والفردة والكلاب فأننا ربما سنجد في بعضها وعلمة التي عصبحت للتفريب سلوكاً يتم عن شيء من الذكاء والفكر ولكن ليس في الدرجة التي استطاع الإنسان التفكير أن يصل إليها وأن القلقة بين هذه الحيوانات والإنسان لا تبرز لأن الفرق شاسع جداً . والشئ الذى يميز الإنسان عن سائر الحيوان هو أنه ناطق وهو عن كل ما يريد من أفكار لديه لذا فإن هذا يؤكد ما ذكرناه سابقاً من أن اللغة والفكر لا يمكن الفصل بينهما . واللغة في الحقيقة لا غنى للإنسان عنها فهي

الوسيلة لإبرار الفكر من جيز الكتان إلى حيز التصريح ، وهي أيضا
عماد التفكير الصامت والتأمل ولولاها لما استطاع الإنسان أن يسبر
غور الحقائق حينما يسلط عليها أضواء فكره .

إذن العلاقة بين الفكر واللغة وطيدة ، فاللغة تقدم للفكر تعاريف
جاهزة وتصف له الأشياء خصائصها حتى لا تتداخل مع غيرها
وتساعد المفكر في عمله إذ تروده بصيغ وتعابير معروفة وتضع تحت
نصرفه أساليب مدروسة .

اللفة وسيلة للتعبير

لقد قلنا أن الوظيفة الأساسية للغة هي التعبير وهي الوسيلة الوحيدة والأساسية للتعبير عن عواطف الإنسان وأحاسيسه وأفكاره من الداخل إلى الخارج . ولكن كما ذكرنا أن هذا التعبير قد يتحد صورا وأشكالا فقد يكون التعبير أحيانا بحركات اليد أو هز الرأس أو بتعبير ملامح الوجه أو بالقر على الخشب أو بالصغير أو غيرها من الوسائل الأخرى المساعدة أقول أن التعبير لا يختص به الإنسان فقط ولكن يجد أن بعض الحيوانات تستطيع كذلك أن تعبر عن حاجاتها بعمله من الأصوات أو الحركات أو الصرخات إذ أن الحيوانات لديها وسائلها الخاصة لتعبيرها عما تريد فهي تستعمل حركات وإشارات وأصوات خاصة بها في حالات مختلفة سواء في التبليغ عن الطعام أو إلى خطر داهم أو إلى رغبة .. الخ .

ويجد أن التعبير إما أن يكون فطريا وإما أن يكون وصعيا فأما التعبير الفطري فهو التعبير عن العواطف والانفعالات والأحاسيس وهذا التعبير الطبيعي الذي يتم بواسطة الصراخ والضحك والبكاء والحرار الوجه .. الخ . من المظاهر غير الإرادية التي تدركها بالحواس .

ومن ما لا يستطيع أن يقرأ على وجه صديقه ما يعتلج في ذهنه من الحواطر ؟ فمن السهل أن تتبين على ملامحه الألم أو الحزن أو السرور أما التعبير الاصطلاحي فهو لغة التفكير والعمليات العقلية المعقدة وهو لغة الحصار والتقدم وبها يتعامل الناس في حياتهم ويتفهمون لقضاء شؤونهم وهذا النوع من التعبير يكون اراديا ومقصودا .

والتعبير الوضعي نوعين :

١ ما يدرك بالبصر ، مثل الإشارات البحرية والحركات اليدوية التي يستخدمها الصم والبكم وكذلك الحركات التي تستعملها كمساعد للكلام للتوضيح والشرح وكذلك العلامات الملغوية المكتوبة .

٢ ما يدرك بالسمع وهي الأصوات المركبة والحمل ويحد أن معظم الحيوانات تشترك مع الإنسان في الطريقة الأولى للتعبير وهي اللغة العطرية فالحيوانات تحس كالإنسان بالجوع والعطش والخوف والعصب . الخ . فهي تستعمل لغتها العطرية للتعبير عن كل حالة من هذه الحالات .

وكما ذكرت من قبل فإن هذه الأنواع من التعابير أبعد ما تكون عن خصائص اللغة حسبنا تعارف عليها الإنسان .

فالحيوان من « البهائم العجماء » فلا يملك جهازا صوتيا ولا يملك فكرا وعقلا وهذا هو ما يميز الإنسان عنه . وعلى هذا فلا يستطيع أن يطلق على تلك الإشارات أو الأصوات أو الحركات التي يعبر بها الحيوان عن رعيته كلمة اللغة إلا على سبيل المحار فقط لأن اللغة هي تلك الرموز والأصوات والحمل والتراكيب التي عرفها الإنسان وألفها واستطاع أن يعبر بها عن رعيته وأفكاره فهي بعيدة كل البعد عن تلك التي لدى الحيوانات .

اللغة وسيلة للتبليغ

من أهم وظائف اللغة نقل فكرة ما من شخص لآخر ، وقد يوجد طرائق مختلفة لتوصيل الفكرة كعص الحركات والإشارات والإيماءات وغيرها من الوسائل المعروفة ، إلا أن اللغة تبقى الوسيلة الوحيدة القادرة على إبلاغ الفكرة من المتحدث إلى السامع بسهولة ويسر وبسرعة فائقة لأن اللغة هي أقدر الوسائل على التبليغ والتوصيل .

ولابد لنقل أى خبر أو فكرة من أن يكون هذا الخبر أو هذه الفكرة مصدر وسهاية مختلفان في الزمان والمكان أى أن الخبر أو الفكرة يتقلان من نقطة البداية إلى نقطة أخرى هي نقطة النهاية ولا بد من أن يسلك هذا الخبر طريقا يدعى الممر أو القنال ، ولكي يمر الخبر عبر الوسط الناقل له فلا بد من صياغته في رموز متعارف عليها ويستعان لتحقيق ذلك بحهار الإرسال لدى الإنسان وهو الجهاز الصوتي وبعد إرسال الخبر لابد أن يوجد هناك جهاز لاقط وهو إذن السامع تتلقى تلك الرموز وترجمها وتعيد لها إلى الصيغة التي انطلق بها الخبر من المصدر .

وهناك أمثلة أخرى على السيلع الا وهو التبليغ البرقي فهناك المصدر تنطق منه بلاغات ورسائل متتالية ، ويجوها جهاز الإرسال إلى نقاط أما جهاز الانتفاط فهو يحول تلك الرموز إلى حروف

وكذلك التأليف يعتبر طريقة من التبليغ ، ان المؤلف هو مصدر كل ما ورد في كتابه من أخبار وأفكار ، والقراء هم بمثابة المنتهى وعملية انكثاه واستجبل هي بمثابة الإرسال ، ونهاء محتوى الكتاب مكتوبا

هو المر الذي يضمن للكتاب الديمومة عبر الزمان والمكان . وأن عقول القراء وعيونهم هي أجهزة الالتقاط . ونقول أن التبليغ اللغوى هو أكثر أنواع التبليغ انتشارا وتداولاً بين الناس لأن الإنسان في أغلب الأحيان هو مصدر الخبر ، فهو يستطيع بفصل تكوينه الفسيولوجى وتجارب الماضى ومدر كاته الحسية والعقلية ، أن يحصل على أخبار يمكن نقلها إلى غيره . ويستعين الإنسان لنقل الخبر كما ذكرت من قبل بجهازه الصوتى الذى يحول الخبر إلى أمواج صوتية تخترق الهواء وأما المر الذى ينتقل عبره هذا الخبر فهو الهواء الذى يشكل صلة الوصل بين جهاز المتكلم الصوتى ، وبين أذن السامع والأذن عبارة عن جهاز من أجهزة الالتقاط كما أوضحنا ، فهى تلتقط الأمواج الصوتية وتحولها إلى حركة تدب عبر الأعصاب ، وتنتقل إلى متنها أى إلى الجهاز العصبى المركزى .

وبعد فإن عملية التبليغ تشتمل على مرحلتين هما :

- ١ - مرحلة الصياغة .
- ٢ - مرحلة الكشف . عن الصياغة والبأسها المعنى المطلوب .

وقد أشار ابن جنى فى كتابه الخصائص إلى ما سماه بالمعميات وهو ما غمى والغمر فى الرسم والكتابة^(١) . ومن أمثلة ذلك أنك إذا أردت أن تكتب « أحمد » فيمكن أن تعوض عن الألف بالكاف مثلاً والهاء بالطاء والميم بالراء والذال بالياء فتكتب كطرى عوضاً عن أحمد .

وأشار ابن جنى أيضاً إلى ما سماه « بالتراجم » وسمى كذلك لأن الكلمة التى فيها تعميمه وغموض تحتاج إلى الترجمة .

(١) الخصائص : ابن جنى ج ١ ص ٤٥

وحلاصة القول أن جلّ اللغات هي في الواقع عبارة عن مجموعة من
العلامات أو الرموز المتعارف عليها في المجتمع ، فالكثابة مثلا هي عملية
وصع للصياغة ، والقراءة هي عملية الكشف عنها ، كما أن الكلام هو
عملية صياغة للأفكار التي تدور في الذهن برموز عربية أو المانية أو
روسية أو غيرها ، وفهم المخاطب لها هو عملية كشف لهذه الرموز
واعطائها المعنى الإجتماعي المتعارف عليه .

دلالة الألفاظ على المعاني

إن علم الدلالة بالمعنى العمى الدقيق أحدث فروع علم اللغة كلها
فلم يحط بشيء من الاهتمام إلا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل
القرن الحالى وهو في الوقت نفسه أصعب مستويات اللغوية وأشقها
على مهوس المدرسين . ذلك لأنه يعرض مشكلة المعنى . والمعنى
اللعوى كما هو معروف موضوع يعنى بكل شيء في حياة الإنسان
ثقافته وحيواته وقيمه ومثله وعاداته ومقاليده ومهنته الخ . وليس من
السهل على الدارس أن يحدد هذا كله ويعرف عليه يعرفا دقيقا إلا
بدراسة طويلة شاقة قد تستغرق حياته كلها .

لهذا نجد أن بعض اللغويين أراد إحراج مشكلة المعنى هائيا من
البحث اللعوى ويرى فريق آخر أن علم الدلالة نفسه ليس في حقيقة
الأمر من فروع علم اللغة وإنما هو حقل يدرس يرتبط بميادين أخرى
كثيره كالمطوق والفلسفة وعلم النفس والاجتماع .. الخ

ولا بد أن نقف قليلا أمام هذه النظرية التي تريد فصل علم المعنى
عن اللغة ونقول أن علم المعنى هو قمة الدراسات اللغوية وأن اللغة أيا
كانت تخدم المعنى فالمعنى هو غاية مطوف لآيه لغة

وأن اللغة تعبر عن معنى في نفس المتكلم والسامع ، إذن لا بد أن
يكون المعنى مرصدا بلغة ارتباطا دقيقا ، وأقول أليس المنطق والفلسفة
والاجتماع علوم كلها تكسب وتدرس بواسطة لغة وتعبر عن هذه العلوم
بهذه اللغة ، وأقول أيضا أن اللغة ظاهرها اجتماعية حصارية فلا يمكن
فصلها عن معناها ولا يمكن تحديد حصاره بدون لغة وهذا ما يندرج به

(١) دراسات في علم اللغة د . ك . ص ٢٢ ٢٣ القسم الأول

١٠- إن عن غيره إذ أن لفته استطاعت أن تتح حضارة ولم يسمع عن حضارة مجموعات الحيوانات المختلفة أو غيرها من الكائنات الحية .

فالعلاقة بين اللفظ والمعنى علاقة أساسية ضرورية كي تؤدي اللغة مفهومها وما ترمز إليه لأن اللغة لو انفصلت عن معناها لأصبحت قوالب مفرغة لا فائدة منها إذ أنه لا بد لكل لفظة من معنى تدل عليه حتى تكتسب هذه اللفظة قيمة معنوية لأنها تؤدي عملاً ما وتدل على معنى ما في حياة الإنسان والمجتمع .

وظيفة الكلمة :

في الواقع أن كل كلمة تؤدي وظيفتين .

أ التعريف بماهية الشيء ، فالكلمة هي أولاً وقبل كل شيء ، لفظة تعرفها بماهية الشيء وبخصائصه ويتم ذلك بواسطة المعنى الأساسي الأصلي .

ب التعبير ، إذ أن الكلمة تحمل معها حينما تطلق شحنة من المعاني الثانوية اللاحقة المرتبطة بالمعنى الأساسي بعلاقة ما ، والدليل على وجود هذه المعاني الثانوية أنها لا تكتفى بظاهر الكلمات لدى التعامل مع الناس ، فتردنا أحياناً نسائل : ماذا كان مقصد فلان من هذه الكلمة إذا كان يري أن يقول ؟ وما هي المقاصد التي تختفي وراء صاهره كلامه ؟ إذا قل . « أريت ذلك الرجل ؟ » فإن كلمة الرجل قد اؤادب التصغير ، من حيث الوضع ، ولكن المقصود هنا من التصغير بل التحقير ، وهو معنى ثانوي ملحق بالأول على أنك إذا قل في موقف آخر « قل يا بني » فكلمة « بني » تفيد هي

(١) محضرت في علم لغة المعنى د حنى بن عيسى ص ٦٨

الأخرى التصغير ، ولكن التصغير في هذه المرة للمحبة والتدليل وبعد
فسواء كانت وظيفة الكلمة هي التعريف أو التعبير أو هما معا فان
الشيء الذي يهمننا في هذا هو أن الإنسان لا يتكلم عبثا إلا في الحالات
المرضية بطبيعة الحال - فهو دائما يصدر عن نية في الإفادة والاستفادة
وهذان العصران هما في الواقع قطبا التبليغ اللغوي أن هناك نية
مقصودة من طرف المتكلم في إفادة المخاطب بحبر لا يعرفه وقد يجد من
هذا الخير ادبا صاغية وحسن تقبل أو على العكس قد يعرف عنه ولا
يشجعه على المعنى فيما أحد فيه ، على أن التعاهم بينهما لا يحصل على
أكمل صورة إلا إذا استجاب الطرف الثاني بالرد فيستفيد المتكلم
الأول بدوره وإلى هذا المعنى تشير جميع التعابير التي وجدناها في
العربية وقد أتت على وزن مفاعلة ، مثل المكاملة والمحاورة والمحاولة
والمباظرة والمخاصمة والمحادثة والمناقشة والمراسلة والمؤاخذة ،
والمبادلة .. الخ . وهذه كلها صور من صور التبليغ اللغوي .

أهمية البحث في دلالة الألفاظ

« علم الدلالة ونشأته »

إن الحديث عن العوامل المؤثرة في تطور الدلالة من مباحثها المختلفة كالتطور مع العصر أو أثر الحضارة والبيئة في تطور المعنى لا بد وأن يسبقه تمهيد عن علم الدلالة ونشأته والدراسات المختلفة التي تناولته ، والمحاولات الأولى التي درست هذا العلم الحديث ، إن علم الدلالة هو قمة الدراسات اللغوية ولكنه مع ذلك أخذتها ظهوراً وذلك يرجع إلى قلة اهتمام اللغويين المحدثين بمشكلة المعنى اهتماماً علمياً ، ففي كتاب علم اللغة للدكتور السمران يقول : « إن أول دراسة علمية حديثة خاصة بالمعنى حتى تلك التي قام بها ميشيل بريل في كتابه *Essai de sémantique* »^(١)

هذا المصطلح الذي أطلقه بريل على دراسته هذه هو كلمة *Semantique* من وضع بريل نفسه فقد كان على بريل أن يسمى هذه الدراسة باسم يميزها عن سائر الدراسات اللغوية ولكن معنى *Semantique* عند بريل غير معناه الذي نعرفه الآن عادة ولو أن اللغويين الآن يعرفون هذا المصطلح تعريفات مختلفة .

لقد كانت الدراسة الدلالية عند بريل ومي جاء بعده بفترة غير قصيرة مقصورة على « الاشتقاق التاريخي » ، وأن بريل كان يرى في لأصوب التي تحكمه غير المعنى خصائص عقلية مجردة وذلك مثل (الحاجة إلى الوضوح) ولكن بريل ومن حلقته كانوا لا يعطون

(١) علم اللغة معناه لغة ، مجرد ص ٣١٧ وما بعده في السمران .

الجوانب الإجتماعية وغير الإجتماعية للظروف الإنسانية التي يحدث لها
التغير أى اهتمام^(٢) .

لقد كان لدروسة بريل في علم الدلالة أثرها في لفت انتظار اللغويين
إلى مشكلة المعنى أو إلى تغير المعنى بوجه خاص فازدادت رغبة
اللغويين في معرفة الأسباب التي تؤدي إلى تغير في المعنى فأخذوا
يمسحون في تاريخ الحياة الثقافية للشعوب بحثا عن الأسباب التي تؤدي
إلى تغير معنى الكلمة .

لقد وجد الباحثون أن ما يتعلق به الجماعات وما يكون لديها من
مثل أعلى وجدوا هذا كله يختلف باختلاف العصور ومن السهل أن
تتبع هذه الاختلافات على مر العصور فمثلا نجد أن مصطلقات النيل
والفروسية في العصور الوسطى كانت تتجمع في صورة رجل راكب
جولدا هو (الفارس) فكان لهذه الكلمة أن أصبحت أصلا لكلمات
كثيرة هي النيل والشهامة والفروسية والشجاعة والقوة .

ومن هنا نرى أن إدراك اللغويين لضرورة تضمين ما يرتبط
بالكلمات من معنى وما تسببه الكلمات عند دراسة تاريخها وتغير
معانيها أخذ يزداد ويزداد . ولو استعرضنا معا كلمة (الفارس) في
عصرنا الحاضر لوجدناها تحمل معنى الشرف والنبل والشهامة
والرجولة والشجاعة والقوة والبطولة .. الخ . من المعاني النبيلة التي تزد
على المخاطر عند ذكر كلمة فارس .

وإذا انتقلنا إلى كتابات غير اللغويين في البحث عن دلالة المعنى نجد
أن (لوجين وريشاردز) قد كتبوا كتابا بعنوان « معنى المعنى »

(٢) مرسيل التطور اللغوي ص ٩٩ د . أحمد حماد .

Meaning of meaning^(١) ولقد ظهر هذا الكتاب بعد كتاب بريل بحوالى ست وعشرين سنة وأحدث أضعاف ما أحدثه كتاب بريل من تأثير لا سيما في الدارسين للمسائل اللغوية ومن اللغويين ومن يرى أن معنى المعنى ليس كما يوحى اسمه دراسة خالصة للمعنى من الناحية اللغوية ، بل أنه يقدم نظرية في المعرفة « الاستمولوجيا » Epistemology وأيا ما كان الأمر فإن مؤرchi الدراسات اللغوية يقررون إن هذا الاهتمام السائد بدراسة الدلالة منذ سنوات لا سيما في الولايات المتحدة الأمريكية ، قد أثاره بوجه خاص كتاب (معنى المعنى) .

والفائدة الكبرى التي أدامها هذا الكتاب أن وضع ما تتصف به مشكلة طبيعة المعنى من تعقيد وقد ألزم هذا الكتاب مؤلفين آخرين أن يدرسوا مشكلة المعنى من وجهات نظر مخالفة كما فعل الأستاذ (برحمان) مثلاً . وتفسير أوجدن وريشاردر للمعنى يقوم على أساس (رياضى) (آلى) المعنى عندهم يرتد إلى أربعة عناصر هي : القصد والقيمة ، والمدلول عليه ، والانفعال العاطفى . ومن المحاولات التي ظهرت في دراسة الدلالة تلك التي قام بها الأستاذ (برحمان) وسماها (مطلق الصيرياء الحديثة)^(١) أو احصاع الألفاظ للتجربة بين الأستاذ برحمان نقارىء المستدىء تلك التعيرات الدلالية التي نظراً على بعض الكميات عندما يستعملها العالم المنحصر في موضوع تخصصه فكلمات مثل « الرمان » و « المكان » من الكلمات اليومية المألوفة ، لكن كل من هذين المصطلحين عند الفيلسوف أو عالم الصيرياء مثلاً

(١) كتاب معنى المعنى ، د . برحمان ، ص ٥٧ وما بعدها ، أنظر

كتاب معنى المعنى ، د . برحمان ، ص ٣١٥ وما بعدها

كتاب معنى المعنى ، د . برحمان ، ص ٣٢١

دلالة تختلف عن دلالة المؤلف في الأحاديث اليومية . ان مشكلة المعنى
دعت الاستاذ بردهمان إلى أن يقترح وسيلة جديدة في « التعريفات »
سمها « طريقة العمليات » أو (الاجراءات) وهذه الطريقة طبقها
على أمثلة كثيرة في كتاب آخر له هو الفرد الذكي والمجتمع The
intelligent individual مستحرجا بها بعض المفهومات الاجتماعية وقضية
الاستاذ بردهمان هي : أن التصور مرادف للعمليات « الاجراءات »
التي تختبرها وذلك كما تختبر الوزن في المعمل .

وعندما طبق بردهمان هذه الطريقة على التصورات الاجتماعية اتضح
أن نتائجه كانت مثبته ، فهو يقول لنا ، إذا لم نستطع أن تختبر تصورات
مثل (الديمقراطية) و (الواجب) و (الأخلاق) بواسطة
(عمليات) فهي إذن تصورات لا معنى لها ويجب طرحها وهكذا
لا يتبقى آخر الأمر إلا الدوافع المركزة حول (الأنا) دوافع الأفراد
الذين يكونون المجتمع .

ان بروحمان عندما يتكلم عن علم الدلالة يبالغ في اظهار أهمية الأنا
ويهون من شأن تعاونه مع الآخرين .

وأنقد هنا نظرية بروحمان هذه لأنه اعتمد فيها أولا على احضار
الألفاظ للاحتبارات أو العمليات كما سماها وبدلك يرفض كل الألفاظ
المعنوية تقريبا لأنها حسب رأيه لا تخصص للتجربة^(١) وأقول أن الإنسان
كائن حي يتفاعل ويتعامل مع الآخرين وأن الفرد يعيش في مجتمع
ولا بد أن يأخذ ويعطي هذا المجتمع ، لأن هذه هي سنة الحياة فلا بد من
أن يتعاون السامع والمتكلم في فهم بعضهم الآخر ولا بد أن يخدم كل
مهما الآخر عن طريق التعامل والتعاون ولا بد إذن أن يكون هناك

(١) عوامل التطور المعنوي د أحمد محمد ص ١١٤

معاني جديدة قد ظهرت عن طريق هذا التعاون وليس من الضروري أن تنحصر هذه المعاني للإجراءات أو العمليات كما سماها بردهمان .

إن الدلالة ومعنى الدلالة وتطور الدلالة حاضرة للمجتمع للفرد للإنسان هذا الإنسان هو الذي يعطيها دلالة جديدة وهو الذي يطورها وهو الذي يكون سببا في وفاتها أو احياء دلالة جديدة لدت قاسيها أنقد هذه النظرية خاصة أنها تخضع للألفاظ للاختبار أو للإجراءات كما بحلوله أن يسميها . وخاصة من حيث التطور الدلالي وإن كنت أؤيد إلى حد ما رأي ريتشارد واو جدن في كتابهما (معنى المعنى) خاصة وأنهما أرجعا تفسير المعنى إلى العناصر الأربعة السابقة الذكر فأننى أجد فيها نوعا من اشراك الإنسان ومن أثر المجتمع في تطور الدلالة وفي معرفة المعنى .

وبعد أن استعرضت نظرية بريل واجدن وبرجمان في تطور المعنى ودلالته يرى أنه لابد من مناقشة نظرية (دى سوسير) وخاصة أن كثيرين قد تأثروا بنظرية .

يسى دى سوسير بنظرية الإجتماعية في اللغة على أساس نظرية دور كايم الإجتماعية ودور كايم يعتبر ما يسميه (نشاط الجماعة) أو (النشاط الجماعي) مستقلا عن أى فرد من الأفراد الذين يتمون إلى المجتمع .

إن للفرد عند دور كايم وجودا خاصا به ، ودور كايم يقرر أن الظواهر الإجتماعية ذات وجود خاص بها واللغة ظاهرة من جملة هذه الظواهر الإجتماعية ، ويرى دور كايم أن الخصائص السلوك أو

(١) علم اللغة مقدمة للقراءة العربية د. السمران ص ٣٢٨

(سماته) وجودا مستقلا ، وأن الأنواع العامة للسلوك الإجتماعي لاتعدو أن تكون تعميمات وأن ما قرره دوركايم عن الظاهرة الإجتماعية يصدق على اللغة في نظرية دي سوسير اللغوية ويصطع دي سوسير (ثالوثا) خاصا به يتضمن تصورات ثلاث متكاملة .

١ - أن ما يسميه دي سوسير Le Langue - اللغة - هو اللغة في أوسع معانيها أي اللغة باعتبارها ظاهرة انسانية عامة .

٢ أما ما يدعوه La Langue - اللغة المعينة أي العربية أو الانجليزية .. الخ . فهو يصمم على وجه الخصوص نظام المفردات والحو في أي عصر من عصور تاريخ لغة معينة و Langue أي هذه اللغة أو تلك عند دي سوسير جماعية أو اجتماعية

٣ - أما التصور الثالث الذي يعبر عنه دي سوسير بكلمة Parole « الكلام » فيعني به اظهار الفرد للغة La Langue وتحقيقه اياها عن طريق الأصوات الملفوظة أو عن طريق العلامات المكتوبة وما يدعوه دي سوسير La parole الكلام فردي وهو واقع تحت سيطرة الفرد

٤ يفرق دي سوسير بين ما يسميه « القيمة الدعوية للكلمة وبين ما يسميه (المقصد) من الكلمة ويكفي لدراسة القيمة الدعوية في رأيه أن ندرس عنصرين هما (الفكرة) التي تدعو إلى صورة سمعية أو أصواتا معينة والصورة السمعية التي تدعو الفكرة^(٢) .

وأن معنى كلمة من الكلمات عند دي سوسير هو ارتباط متبادل أو علاقة بين الكلمة أو الاسم هي الصورة السمعية وبين الفكرة .

(٢) علم اللغة مقدمه للفكرى العربى ص ٢٢٠

ان الكلمة علاقة لغوية ونحن عندما نغرق تفريقا اساسيا بين فكرتين
فنحن نستعمل لذلك علاقتين لغويتين مختلفتين فالتفكير دون كلمات
(عام) ويرى دى سوسير أن العلاقة اللغوية لا تخلق وحدة بين اسم
ومسمى ولكن بين فكرة وصورة سمعية . والمقصود يقابل الرمز أو
العلامة والعلامة من ناحية أخرى تقابل سائر العلامات الموجودة في
اللغة موضوع الدرس وقيمة كل رمز أو علامة تتوقف على وجود سائر
الرموز .

وضرب دى سوسير لذلك مثلا بقطعة من ذات الخمسة فرنكات :
هذه القطعة يتأتى استبدالها بكلمة معينة من شيء مختلف كالحيز مثلا ،
وستطيع كذلك أن نقارنها بقيمة مماثلة من نفس نظام العملة ، كقطعة
ذات فرنك واحد مثلا ، أو قطعة من عملة أخرى كالـ "دولار" (١) .

وأن دى سوسير كان صاحب فكرة تمثيل الدراسة الوصفية للغة من
الدراسة التاريخية لها وقد طبق هذا التمييز عند نظره في المعنى حرص على
وجود التفريق بين دراسة المعنى دراسة (وصفية) أى في مرحلة معينة
أو حالة معينة تجرد من تاريخ لغة من اللغات وتدرس بغض النظر عما
قبلها وعما بعدها من مراحل أو حالات وبين دراسة المعنى دراسة
تطورية يرى ها أن دى سوسير يريد أن يقطع الصلة بين الألفاظ
والتي تستمر دون انقطاع بين الألفاظ على مر العصور . فلو سلما
معه حدلا ودرسا الألفاظ في مرحلة معينة وبعض النظر عما قبلها
وعما بعدها فاما لا يستطيع أن يعرف تطور هذه اللفظة وكذلك
تطور دلالتها إلا إذا رجعا إلى العصر السابق الذي كانت مستعملة فيه
وكذلك إلى العصر الذي تعيش فيه والعصر اللاحق الذي انتقلت إليه .

(١) المرجع السابق

أقول أن دراسة دلالة الألفاظ دراسة متصلة وحلقة واسعة ستمل فيها الألفاظ من عصر إلى عصر ومن حضارة إلى حضارة وهي في كل مرحلة تكتسب دلالة جديدة ومعنى جديدا . وهذا يعنى أنه لا انقطاع ولا انفصال بين الألفاظ في عصر عن آخر وإنما الدلالات الجديدة التي اكتسبتها هذه الألفاظ هي فقط التي نستعملها ونعامل بها ، ولذلك يخل إليها أنها بعيدة أو منفصلة عن العصور السابقة أو عن تاريخها اللغوي السابق وكثيرا ما يلجأ الإنسان إلى تعبير المعنى في حالة الضرورة ليسد القصر في ثروته اللغوية وليسائر التطور الحصري الذي يسير بسرعة دون أن ينظر إلى ما حوله .

العوامل المؤثرة في تغير الدلالة

هناك عوامل خارجة لها أثرها في تغير المعنى حيث أن الألفاظ متطورة متغيرة فلا بد أن يكون هناك ما يؤثر على تغير الدلالة تأثيراً مباشراً مما يؤدي بالتالي إلى تغير في هذه الدلالة فتؤدي معنى جديداً وتدل دلالة جديدة على معنى قديم أو كلمة جديدة إلى مدلول قديم .

ومن هذه العوامل ما هو معروف لنا من قبل وهو : الحاجة إلى كلمة جديدة أو كلمة أقدر من غيرها على التعبير المقصود .

فاذا احتجنا مثلاً إلى كلمة مناسبة لاطلاقها على الاسطوانة المعروفة في عالم العناء والموسيقى فأقرب طريق إلى ذلك هو أن نوسع في معنى كلمة تسجيل بحيث تشمل الاسطوانة بالإضافة إلى عملية التسجيل نفسها^(١) .

على أن هناك حالات أخرى لا حصر لها يكون تعبير المعنى فيها غير مرتبط بأية حاجة عملية حيث لا يعمل هذا التعبير على سد القصر الموحود في الثروة اللفظية وإنما يصيف أمثلة جديدة إلى المترادفات الموحودة بالمفعل .

فالمفعل « يموت » وما يشتق منه يصح حائر الاستعمال في الكلام .
« رح نحو » « يموت فيه » (وحبها موت) فاللغة لديها ثروته عنده من الكلمات التي تستطيع أن تختار منها ما يشاء .

إن تغير المعنى ليس إلا جانباً من جوانب التطور اللغوي ولا يمكن فهمه فهماً تاماً إلا إذا نظرنا إليه من هذه الراوية

(١) إيمان : دور الكلمة في اللغة ، ص ١٠٥ ، د . كان شر ص ١٥٥

وكما نعرف أن اللغة ليست ساكنة بحال من الأحوال . بالرغم من أن تقدمها يبدو بطيئاً في بعض الأحيان ، فالأصوات والتراكيب والعناصر النحوية وصيغ الكلمات ومعانيها معرضة كلها للتغير والتطور .

ولكن سرعة الحركة والتغير فقط هي التي تختلف من فترة رسمية إلى أخرى ومن قطاع إلى آخر من قطاعات اللغة .

إن كل التغيرات التي تصيب اللغة مهما اختلفت في طبيعتها وسرعتها ومجالاتها تسير وفقاً لقاعدة أساسية واحدة هي أنها دائماً وأبداً تقع على مرحلتين :

١ مرحلة التغير نفسه أو الابتداع والتجديد . ويظهر هذا في الكلام المعلن وهو عمل فردي كالكلام نفسه ، ولكن هذا لا يعنى أنه مقصور على فرد واحد ، فقد يتصادف أن يتفق أفراد لا حصر لهم على الابتداع في وقت واحد . بل قد يحس عدد آخر من الجماعة اللغوية المعينة بأن هذا الابتداع كان حاضراً بأذهانهم وكان باستطاعتهم أن يبدأوا به وربما فعلوا .

٢ مرحلة انتشار التغير : إذا ما سمع الإنسان الشيء المبتدع في عبارة أو في عبارات علق بالدهش وترتب على ذلك استعمال الآخرين له ونقد بالتدرج إلى نظام وتأتى بعد ذلك مرحلة تسجيل الكلمات ومعانيها في معاجم اللغة .

وبرى أن المرحلة الأولى فردية والثانية اجتماعية معتمدة في أساسها على قوة التقليد ، هذا التقليد ربما يكون مقصوراً على المتكلمين البالغين ولكن يجب ألا نسى الدور الذي تقوم به الأجيال القادمة في عملية

التجديد اللغوي هذه الأجيال حين اكتسابها للغاتها القومية تتعرض
لاحتتمالات سوء الفهم وتعبير القواعد والنظم الثابتة أو الانحراف عنها .

أن اللغة تنتقل من جيل إلى جيل على فترات تتحللها تعبيرات
وانحرافات دائمة ، وهذه الحقيقة ذاتها تؤدي إلى المرونة في الاستعمال
اللغوي وإلى عدم ثبات الظواهر اللغوية أكثر من أى عامل آخر

واليك العوامل المباشرة المؤثرة في تغير المعنى :

١ - الاستعمال اللغوي : أن الألفاظ كما هو معروف لم تخلق
لتحيس في خزائن من الزجاج ففراها الناس من وراء تلك الخزائن ثم
يكتفون بتلك الرؤية العابرة ولو أنها كانت كذلك لبقيت على حالها
جيلا بعد جيل وعصرا بعد عصر ولكن الألفاظ وجدت وتعارف
الناس عليها لاستعمالها في حياتهم اليومية ، كما يتعاملون بالسلعة
والعملة ، غير أن التبادل يكون عن طريق الأدهان ، تلك التي تختلف
من جيل إلى جيل وبين أفراد الجيل الواحد والبيئة الواحدة بل والأسرة
الواحدة في التجربة والدكاء وتشكل وتنكيف الدلالة تبعاً لها^(١) .
ويمكن تلخيص عناصر هذا العامل فيما يلي :

١ سوء الفهم وتلك تجربة قد عمر بها كل ما حين يسمع
اللفظ للمرة الأولى فيسوء فهمه ويوحى إلى ذهنه دلالة غريبة لا تكاد
تنت إلى ما في ذهن المتكلم بأية صلة ومثال ذلك أن نسمع شخصاً
ما يقول القدر يمكن أن يساء فهمها ويأخذها السامع على أنها القدر أو
القنر وكذلك كلمة الثورة قد يساء فهمها ويأخذها السامع على أنها
الثروة ثم لا تناح للسامع فرصة أخرى لتصحيح خطئه ويبقى اللفظ في
ذهنه مرتبطاً بتلك الدلالة الجديدة .

(١) عوامل التطور اللغوي د أحمد حماد ص ١١٩ ، ص ١٢٠

ب - الابتدال أو « الانحطاط » . هناك كثير من الألفاظ في كل الدعات يصيها الابتدال وذلك لأسباب منها سياسية أو اجتماعية أو عاطفية . فحين نتذكر أن بعض الظروف السياسية قد تتطلب الحط من القاب ورتب اجتماعية ندرك السبب في انزواء بعض الألفاظ التي تعبر عنها من النعة ولعل أقرب مثال لهذا هو العاء الألقاب والرتب في مصر فابروت كلمات مثل باشا ، بك ، اعدى ، وغيرها من القاب تركية مرت بها تطورات في دلالتها وانحط قدرها على توالى الأيام^(١) .

ولعل أوضح الأسباب في ابتدال بعض الألفاظ تلك التي تتصل بالاحية النفسية العاطفية وذلك أن يكون اللفظ قبيح الدلالة أو يتصل بالقدارة والندس أو يرتبط بالعريضة الجنسية . ملحظ هنا أن حل اللغات تفقد بعضا من الماطها التي تعبر عن هذه النواحي فتدثر تلك الألفاظ وتبرى ويحل محلها لفظ آخر أقل وضوحا في دلالة وأكثر عموضا أو نعية مثل قصاء الحاجة أنا داهب للحمام^(٢) .

ح - احاء ألفاظ قديمة ذات دلالات مدثرة واطلاقها على مسحدثاته ملتصقا في هذا ادنى ملايسه ، وهكدا وجدنا أنفسا أمام ذلك الفوح الراحر من الألفاظ القديمة بصورة جديدة من الدلالة كأندفع والقسمة ، والدبابه والنعم ، والطيارة ، والطراد ، والسيرة ، والبريد والقاطرة والقطار ، والثلاجة ، والندياح ، والدبدبات ، والتسحيل ، واخرائد ، والهااتف والندعراف وغير ذلك من آلاف الألفاظ التي أحياها الناس واستعملوها وحلغوا عليها دلالات جديدة نظمتها حياتهم اليومية الحديثة^(٣) .

(١) دلالة الألفاظ د - ابراهيم أسس ص ١٣ وما بعده

(٢) انظر علم لغة - مقدمة شعري، العربى د - الشعرا ص ٣٠٥

(٣) اللسان والاسنان د - حسن صاحب ص ١٠٤

د الاقتراض : كثيرا ما تدعوا الحاجة إلى الفاظ اللغات الأخرى فيقتصر منها ما تمس الحاجة إليه حيناً ومالا حاجة إليه حيناً آخر ، فاللغات تقتصر بعضها من بعض ، ويقتصر الاقتراض عادة على الألفاظ والكلمات ولا تكاد تتعداها إلى العناصر النحوية الأخرى كالتصريف والاشتقاق والتركيب أما الاقتراض الذي تدعو الحاجة إليه فقد عرفه القدماء كما عرفه المحدثون فقد اقتصر العرب من الفرس واليونان الفاظاً لتعبير عن أشياء ليست في بلاد العرب ، وعمد القدماء إلى تلك الألفاظ فحوروا من بيتها وجعلوها بسج الكلمات العربية وسموها بالعربية وتركوا البعض الآخر على صورته وسموه بالدخيل . ومن أمثلة ذلك :

الصراط : وأصله الكلمة اللاتينية ستراتا .

الخدق من الفارسية حده

البرتقال . من بحارة البرتغال .. الخ . من مثات الألفاظ (١)

٢ العوامل التاريخية : ان انتقال الكلمات من عصر إلى آخر لا بد وأن يصاحبه تغير في مدلول هذه الكلمات نظراً لما يحدث من تغير وتطور في الحياة الاجتماعية والسياسية والإقتصادية وغيرها مما يلمس حياة الإنسان من قريب أو بعيد وكما أوضحنا أن الكلمات عرصة لتطور والتعبير ويكون هذا واضحاً جلياً عند انتقال الألفاظ من عصر تاريخي إلى عصر آخر ومن فترة تاريخية معينة إلى فترة تاريخية جديدة حدث ما حدث فيها من تغير في حياة الناس وعاداتهم وتقاليدهم ومثلهم ومخترعاتهم وماحدث عليهم من صناعات جديدة وعلوم وفنون حديثة كل هذا لابد وأن يحاريه تطور في الألفاظ وتغير في الدلالة .

(١) نفس المرجع السابق ص ١٧

فكلمة Ship « سفينة » مثلا قد تعبرت صفتها تعبرا لا يكاد يذكر
مد العهد الانجلو سكوتى ومع ذلك فان السفن الحالية تختلف عن
السفينة التى كان يبحر عليها قراصنة الشمال من عدة وجوه ، أى من
حيث الحجم والتركيب والشكل والخواص السفية^(٢) .

ومعنى هذا أن المدلول قد لحقه التغيير ولكن اللفظ الدال عليه قد
بقى على حاله ومعناه كذلك أن التماثل الأساسى فى الوظائف القديمة
والجديدة للمدلول كان سببا فى اعاقا اللغة عن ملاحقة التقدم
الحضارى وهذه الظاهرة نفسها تطبق على المنظمات والمؤسسات
ونحوهما .

فالبرلمان الانجليزى اليوم يختلف إلى حد ما فى لوائحه وقوانينه عن
برلمانات القرن السابع عشر ومع ذلك فقد وجد أن من الأصلح
الاحتفاظ باللفظ الدال عليه . ولو فرص حدوث تعديل دستورى
آخر ، وكثيرا ما يناقش هذا التعديل فى الوقت الحاضر ، يرمى إلى تعبر
إلى الطريقة التى يتكون بها مجلس اللوردات مثلا فان هذا التعديل
سوف لا يتضمن التخلص من الاسم ذى الشهرة التاريخية ، وتغييره
إلى « جمعية » أو « كونجرس » مثلا . نعم أن المدلول حينئذ سوف
يلحقه تعبير جوهري ، ولكنه مع ذلك سوف يظل مرتبطا بالمدلول
القديم ومتصلا به^(١) .

وفى العصر الإسلامى حدث تعبر كبير فى مدلول كثير من الألفاظ
والمصطلحات الدينية والشرعية والعقائدية واللغوية وكانت ألفاظها

(٢) النعمة والمجمع د السمران ص ١٤

(١) اللغة والمجمع د السمران ص ١١٤

موجودة قبل الإسلام ، ولكنها كانت تدل على معان أخرى فتحوّلت الدلالة على ما يقارنها من المعاني الجديدة . فلفظ المؤمن كان معروفاً في الجاهلية ولكن كان يدل عندهم على الأمان ، أو الإيمان وهو التصديق فأصبح في الإسلام يدل على المؤمن وهو عمر الكافر ، وقس على ذلك جميع المصطلحات الفقهية التي ظهرت في صدر الإسلام^(١) .

ثم نجد أن هناك ألفاظاً إدارية استحدثت لما امتدت الفتوحات واتسعت رقعة الدولة الإسلامية لقد مست الحاجة إلى مصطلحات إدارية وسياسية فانتشرت ألفاظ جديدة مثل الدبابة ، والعرادة والكبش والمجنيق ، والمتطوعة .. الخ .

وحدث ما حدث من تطور في المصطلحات المالية مثل الجباية ، والمكس ، السكة ، الراتب ، الضمان ، المكوس وغير ذلك كثير وبهذا ظهرت ألفاظ جديدة أصبحت تدل على مستحدثات جديدة لم تكن معروفة في العصر الجاهلي ولهذا نجد أن الألفاظ عرضة للتطور والتغير في كل عصر ولذا نجد أن الألفاظ ربما تدل دلالة جديدة على معنى قديم أو تليس معنى قديماً لفظاً جديداً .

(٢) انظر اللغة كائن معنى نحو حي ، بدال من ٦٥ وما بعدها

نشأة اللغة عند الطفل

عما لا شك فيه أن التكلم أمر مكتسب وليس للوراثة أى أثر مباشر أو غير مباشر على تعلم الأطفال لغة الآباء ، ولو فطر الإنسان على التكلم لما تعددت اللغات ولما وجدت اليوم أكثر من ألف وخمسمائة لغة ، ولكن لا بد أن يحيب علم اللغة على أسئلة مارالت تحتاج إلى الإجابة عليها مثل كيف يتعلم الطفل اللغة ؟ وهل يتعلمها دفعة واحدة أم على دفعات ؟ وهل هناك تفاوت لدى الأطفال في تعلم اللغة ؟ وهل يستطيع الطفل أن يدرك دلالة الألفاظ التي يتعلمها ويكتسبها سواء من أهله أى من بيئته الضيقة أو من البيئة الأوسع والأشمل بيئة المدرسة والحارة . الخ . ؟

وما أثر ثقافة الوالدين على سرعة تعلم الطفل اللغة ؟

وهناك عشرات الأسئلة تنتظر الإجابة عليها . وفي الحقيقة يشير إلى أن اكتساب الطفل للغة يكون مرتبطا بالأم في الأيام والشهور الأولى من حياة الطفل فالأم هي التي تناهى طفلها وتدربه على الأصوات الدعوية ونصوب له حتى يستوى لسانه ويطلق اللفظ نطقا صحيحا كما نعرف عليه أفراد البيئة

وقد ورد في كتاب يسيرس أن الحروف الأولى التي يطقها الطفل هي الحروف الشفوية مثل اء واء وءث لأ لطفل يقوم في بداية الأمر بتمرير عضلاته الشفوية من غيرها ، حتى تعلم أن هذه العضلات الشفوية هي وسيلة إلى الحياة حيث هو سطة نفسه يرصع ثدى أمه ويصحب حليبها ، وحتى إذا لم يرصع من ثدى أم فإن حليب

(١) Ott Jespersen Language its Nature, development and Origin
London 1959 P 105

الرجاجة أو ما يسمى « بالرضاعة » يمتصه الطفل عن طريق استعمال شبعته ، ولذا فإن أسهل الحروف نطقاً عنده تكون الحروف الشفوية لأنه قد تمرن على استعمال شبعته في الرضاعة ويجد أن أول الألفاظ التي يطقها الطفل (بابا - ماما) في وقت مبكر هذا بالإضافة إلى تمرين الوالدين للطفل على نطق هذه الألفاظ فيسعد الوالدان عندما يسمعا طفلهما ينطق بابا ، ماما نظراً للصلة القريبة التي تربطهما به .

وفي الحقيقة أن هناك خلافاً بين علماء الوراثة والبيئة مازال قائماً حول دور البيئة أو الوراثة في تعلم الطفل ، قد يجد بعض علماء الوراثة يرجعون عملية التعلم إلى طائفة من العرائز الموروثة أو بحمسة من المعكسات الشرطية المكتسبة ، إلا أن الجدال بين أصحاب الوراثة ودعاة البيئة لم ينتهي إلى نتيجة حاسمة ، مادامنا نجهل الكثير من الأمور عن مراحل نمو الحنين ووظائف الأعضاء وارتباط بعضها ببعض .

والشيء المؤكد أن نمو اللغة عند الطفل مشروط بما يلي :

١ اكتمال الأجهزة العضوية ، ونصح بعض الأسجة العصبية والعصلية .

٢ تدريب أعضاء النطق عند اكتمال نموها عن طريق التعميم^(١) .

٣ أما الأستاذ هيرث فقد رأى أن النمو اللغوي للطفل يمر بالمراحل الآتية :

١ مرحلة المهد وهي مد ولادة الطفل إلى ما قبل استطاعته الجلوس .

(١) محاضرات في علم النفس اللغوي د . حمدي بن عيسى ص ١٤٠

- ٢ - مرحلة الجلوس وفي هذه المرحلة يكون قد بدأ الكلام .
- ٣ - مرحلة الحبو وفي هذه المرحلة يتسع عالم الطفل شيئاً ما لأن الحبو ينقله إلى أبعد من مجلسه .
- ٤ - مرحلة السير بمساعدة وفي هذه المرحلة ينتقل الطفل إلى عالم أرحب
- ٥ - مرحلة السير لوحده في حدود المنزل .
- ٦ - مرحلة السير خارج المنزل .
- ٧ - مرحلة الذهاب إلى المدرسة . وهذه المرحلة من أهم المراحل بالنسبة للغة .

أما العالم الدغركى (يسيرس)^(٣) فقد رأى التقسيم الثلاثى لدراسة نمو اللغة عند الطفل .

- ١ - مرحلة الصياح .
- ٢ - مرحلة البأبة .
- ٣ - مرحلة الكلام أو التكلم^(٤) .

وفي الحقيقة يرى أن تقسيم يسيرس يصلح للدراسة وللوصول إلى نتائج حول تعلم الطفل اللغة من دراسة تقسيمات فيرث ، وسوف بدأ بدراسة المرحلة الأولى وهي فترة الصياح عند الطفل وتمتد هذه المرحلة من مولد الطفل حتى الأسبوع الثالث وقد تستمر إلى الأسبوع السابع أو الثامن .

(٢) اللغة والمجتمع د . محمود السوان ص ٤٠

(٣) يسيرس ص ١٠٣ المرجع السابق

(٤) انظر اللغة والمجتمع د السمران ص ٤١

ان الصرخة الأولى التى يطلقها الطفل ساعة ولادته هى أول بادره تدل على قدرته على التصويت وفى الحقيقة أن هذه الصرخة ليست كلاما ولكن علماء النفس والفلاسفة والآباء قد حملوا هذه الصرخة أكثر مما تحمل إذ راح كل واح منهم يعزوها إلى معنى من المعانى وهذه المعانى كلها من قبيل الافتراضات والتخمينات ولكن هذه الصرخة اثبتت أن هذا الوليد قد برز إلى حيز الوجود وقد روده الله بجهاز الكلام وفى الحقيقة أن جهاز التنفس هو جهاز ضرورى للتكلم فيما بعد إذ أن الكلام فى بدايته هو عملية شهيق ورفير وأن الرئتين هما الجهاز الأساسى فى عملية الكلام بالاضافة إلى الأجهزة الأخرى مثل الحجرة والمرمار والوتران الصوتيان واللسان والعم والاسنان فهذه كلها تنمو مع نمو الطفل ولكن الجهاز الأول الذى يبدأ به حياته هو جهاز التنفس الذى بواسطته تستمر الحياة ومعه يكتمل تعلم الطفل اللعة .

ومن المؤكد أن الصرخات التى يصدرها الأطفال كلها واحدة ولا تستطيع أن تميز صرخة عن صرخة ولا يعرف أن هذه الصرخة تدل على الجوع أو العطش أو الألم إلا لدى الأم التى تعودت على صراحات طفلها وهى الوحيدة التى تعطى لكل صرخة معناها الذى اكتسبته من الممارسة أثناء معاشرتها لطفلها . ادن هذه الصرخات هى أفعال معكسة غير إرادية لأن الطفل لا يريد التعبير عن شئ معين على وجه التحديد خاصة فى الأشهر الأولى من حياته . ولكن الأم فقط كما ذكرت هى التى تكسب هذه الصرخات معانى محددة لديها .

٢ فترة المتاعاة أو البأبة

فى هذه المرحلة يتف الطفل من الصراخ الذى لا معنى له إلا لدى

أمه وإليه إلى مرحلة جديدة تسمى مرحلة المباشرة ، ففي هذه المرحلة يصبح تعلم الطفل اللغة امر إراديا حيث يبدأ الأهل بتعليم الطفل بعض المقاطع الصوتية وخاصة الأصوات الشفهية وفي هذه المرحلة يبدأ الطفل يردد هذه الحروف دون تمييز ودون مراعاة إلا رغبة في التكرار واللهو . وفي هذه المرحلة يبدأ الطفل في تمرين جهازه الصوتي على النطق ويعوده على التلمظ إلى أن يتمكن ذلك الجهاز من أداء وظيفته على الوجه الصحيح .

ونعلم أن الطفل لا يعيش بمعزل عن الناس ولا يظل محصورا في الاستماع إلى صوته فقط ولكنا نجد الطفل بعد مرور شهرين أو أكثر على ولادته يسمع بعض الأصوات من حوله وخاصة الأصوات التي تصدرها الأم أو المربية وهما يبدأ الطفل يدرك الشبه بين صوته الذي يصدره والصوت الذي يسمعه من أمه ومن حوله ، ويكون قد وصل في هذه المرحلة إلى نهاية السنة الأولى من عمره^(١) .

وكما ذكرت فإن الحروف الأولى التي يبدأ الطفل النطق بها هي الحروف الشفهية أو التي تصدر عن الشفة ويستطيع أن يقول أن يبدأ الصوائت أي الحروف المتحركة ، أما بالنسبة للحروف الصامتة وكذلك الحروف التي تخرج من التجويف الخلفي للجهاز الصوتي فإنها قد تتأخر إلى مرحلة تالية من عمر الطفل

ويرى بعض الباحثين أن نسبة ظهور الحروف الصائتة إلى الحروف الصامتة تصلح كدليل على نمو التعبير للمعوى لدى الأطفال الرضع ممن لا يتجاوز عمرهم شهرا ، وهي خمسة إلى واحد^(٢) .

(١) انظر اللغة والمجتمع د السعراي ص ٤٤

(٢) محاضرات في علم النفس المعرفي د حمدي بن عيسى ص ١٤٦

وقد اهتم بعض علماء اللغة مثل (جاكوبس) وبعض
النفس مثل (ايروين) بموضوع التطور الصوتي لدى الطفل في الأشهر
الثلاثين الأولى من حياته ، وقد احصى (ايروين) عدة حركات
الصائتة هو جد أنها تبلغ اثني عشر صوتاً وعلى سبيل مفاضة ، يشير
أن لغة الراشدين لا تريد فيها الحروف الصائتة على ثلاث أحرف أو -
ستة بتعبير أصح كما ذكر ابن حني حيث يقول « أما ما في أيد
الناس في طاهر الأمر ثلاث ، وهي الصمة والكسرة والمنحة
ومحصولها على الحقيقة ست ، وذلك أن بين كل حركتين حركة »^١

ويعتبر مرحلة المماعة هي في حد ذاتها خطوة نحو تعلم الطفل الكلام
إد في هذه المرحلة يبدأ الطفل في تمرير جهلاء الصوتي والسمعي
سماع الأصوات وعلى النطق بها وتعتبر هذه المرحلة كما ذكرت الخطبة
الأولى نحو تعلم لغة الأمهات والآباء ويبدأ الطفل يعود جهاز النطق
على أن يكون طبعاً سلساً من أجل استعماله في ألفاظ جديدة سيق
الطفل على تعلمها .

٣ مرحلة الكلام :

ونقسم هذه إلى مرحلتين ، مرحلة التقليد والمحاكاة ، والمرحلة
الثانية تعلم الطفل الألفاظ والمفردات والحمل والتراكيب .

أما مرحلة التقليد ، فهي هذه الفترة يقلد الطفل من حوله تقليد
غير محكم وحده يحاول تقليد أمه وأبيه ومن حوله ولكنه لا يستطيع
ذلك بسهولة ولا يلتزم بأصل اللفظة التي يريد تقليدها ، وفي هذه
المرحلة حد أن كلامه قصير لا يكون مفهوماً تماماً إلا لدى أفراد أسر

(٢) أحمد نند ٢٠٠٢ ص ١٢ ١٢١

المقريين فيعبر الطفل بحرف (م) بدلا من (ماء) أو (ميه) و (آيه) بدلا من (كوب أو كباية) و (احد) بدلا من (أحمد) وهكذا إذن كما قلت في هذه الفترة تبدأ الأم بتصويب الألفاظ لطفلها وتعويده النطق السليم واختراع الحروف من مخارجها وخاصة الحروف السهلة المخرج مثل الحروف الشفوية واللسانية .

وفي هذه المرحلة يتضح دور الأسرة ودور الأم بالذات على توجيه الطفل وتدريبه وتعليمه وهذا يعود أيضا على ثقافة أفراد الأسرة مثل الأم والأب والأخوة ومن يعيش مع الطفل .

مرحلة تعلم الألفاظ والمفردات والجمل :

بعد المرحلة السابقة وهي فترة استعداد وتهيؤ لدى الطفل ينتقل الطفل إلى المرحلة اللغوية الثامنة والتي يبدأ الطفل بها تعلم الألفاظ والمفردات ويحاول أن يركب جملة ولو كانت بسيطة مكونة من لمعتين ، وفي الواقع يجد الطفل ينطق بعض المفردات التي تتكون من مقطع صوتي واحد مصاعف مثل (ماما ، بابا ، تاتا) وهكذا ، ولقد لاحظ العلماء أن سرعة نمو اللغة عند الطفل تزداد ما بين الثامنة والثامنة من العمر ، ثم تعود كما كانت بطيئة إلى أن يبلغ الطفل الرشد وفي هذه الفترة من عمر الطفل أي من الثامنة إلى الثامنة يمر الطفل بمراحل هي أنه يخرج إلى الشارع ويلتقط من اقراءه الألفاظ والعبارات إلى أن يذهب إلى المدرسة أو إلى الروضة إذا كان في البيئة التي يعيش فيها روضة للأطفال دون سن السادسة وعندما يبلغ السادسة من عمره يبحرط في طور الدراسة وينتقل إلى مرحلة جديدة في حياته وهي مرحلة المدرسة هي هذه المرحلة يبدأ الطفل في شراء حصصه اللغوية وهذا يبدأ دور الأسرة في المتابعة والتحصيل وهذا يظهر أثر الثقافة الفردي إذا كانت

الأم مثقفة متعلمة فهي تستطيع متابعة طفلها بل وإضافة معلوم -
جديدة على معلوماته التي يحصل عليها من المدرسة وإذا كان الطما
يعيش في جو ثقافي علمي فانه يلتقط من والديه وإخوانه الذين يكبرو
سا القاطا وعبارات وصيغ وجمل لا يستطيع أن يعيها طفل آخر يعيش
في بيئة معدومة الثقافة والعلم وها يظهر التفاوت لدى الأطفال من
حيث تعلم المفردات والألفاظ حيث من الطبيعي أن تكون محصلة
الطفل الذي يعيش في بيئة ثقافية أكثر من محصلة الطفل الذي يعيش في
بيئة فقيرة معدومة ثقافيا وإن كانت مترفة تعيش في رخاء من العيش ،
وأول ما يتعلم الطفل من المفردات الأسماء وخاصة أسماء الأشخاص
الذين يحيطون به ، ثم يلي ذلك الضمائر والأفعال ، حتى إذا بلغ الطفل
ثلاثين شهرا تناقصت الأسماء وتزايدت الأفعال والضمائر وبعض
الظروف وأحرف الجر^(١) .

ويعرى تعلم الطفل الأسماء أولا نظرا للنوعية من جهة وعدم
التجريد في الأسماء من جهة أخرى كما هو في الأفعال .

تركيب الجمل :

لا يستطيع الطفل أن يؤلف جملة إلا بعد أن يحصل حداً من
الألفاظ وقدره بعض العلماء نحوالي مائة أو مائتين من الألفاظ ،
والدحيرة الدعوية لدى الطفل لا تقاس بعدد المفردات التي يعرفها
فحسب بل بحس استعملها له ، ولذلك فلا بد من معرفة مقدرة الطفل
على تركيب الجمل وها نوضح أن وحدة الكلام عند الطفل ليست

(١) ارتقاء اللغة عند الطفل من الميلاد إلى السادسة د صالح الشماع دار

المعارف ص ١٢٤

الكلمة بل الجملة وهذا الأمر يصدق على الطفل الصغير والكبير معا ،
فالأول لا يستطيع أن يتصور مفهوم الكلمة ، وكيف أنها تخيل إلى
المدرجات ، بل هو يتكلم لا لشيء إلا ليعبر عن حاجات ملحة أو
يطلب مساعدة فهو عندما يستعمل كلمة واحدة إنما يعنى بها جملة
كاملة .

ونقسم مراحل تكوين الجمل لدى الأطفال الذين لم يدخلوا
المدرسة بعد إلى ثلاث مراحل^(٢) :

أ - مرحلة الكلمة القائمة مقام الجملة (من السنة الأولى إلى الثانية
تقريبا) فقد يعنى بقوله ماما تعالى يا ماما .

ب - مرحلة الجملة الناقصة (من الثانية إلى الرابعة) والمقصود بالجملة
الناقصة هي الكلمات (اثنتان أو أكثر) الموضوعه بعضها بجانب
بعض من غير أن ينتج عنها جملة تامة .

ج - مرحلة الجملة التامة (من السنة الرابعة) فقد لوحظ أن الحمل
البيطة يتناقص عددها ابتداء من السنة الثالثة أو تحس معها
تدريجيا الحمل الأكثر تعقيدا ، ونقصدها اشتملت على البعت
واسم الموصول والظرف وما إلى ذلك . ونود أن نشير أن تحديد
المراحل بالأشهر أو السنوات ما هو إلا أمر تقريبي سبى لا يطبق
على جميع الأطفال

(٢) محاضرات في علم النفس المعرفى د. حمى بن عيسى ص ١٥٨

كيف يتعلم الراشد اللغة

لا يحسن أحد أن امتلاك ناصية اللغة تتم بصورة عموية وتلقائية بل على العكس من ذلك لابد من التدريب مدة طويلة حتى يكتسب الفرد عادات لفظية ويعرف كيف يستعمل تلك الألفاظ استعمالاً صحيحاً وقيل أن الطفل يقضي ما يزيد على خمس عشرة سنة قبل أن يمتلك زمام اللغة وقبل أن يتقنها كتابة وطقاً وبعد أن يمتلك الطفل زمام اللغة أى فى المرحلة الثانوية وعندما يصبح راشداً تبدأ قدراته على التعبير السليم تنمو ويصبح يميز بين الألفاظ والدلالات ويختار اللفظ المناسب للمعنى الذى يماسه ولا بد هنا من أن يتقن الراشد قواعد اللغة إذ أنه ما من لغة إلا وتتألف من ركنين أساسيين هما : المفردات من جهة ، والقواعد من جهة أخرى وعرفها كيف يكتسب الطفل المفردات ويسمى حصيلته اللغوية ، ولكن معرفة المفردات وحدها لا يكفى لأنه لا يمكن للإنسان أن يستعمل المفردات كيفما اتفق ولا بد من مراعاة نسق معين ولا بد من إعطاء كل كلمة مكانها فى الجملة حتى يكون الكلام معيذاً ، ولو كانت عمية النكتم مجرد رص الكلمات حتى بعضها لكان تعلم اللغات أمراً سهلاً ولاستطاع أى فرد كتابة ما يريد فى أى لغة كانت وبسبب أن يستعمل القاموس وحده دون حاجه إلى غيره وبكى الأمر خلاف ذلك والسؤال الذى يطرح نفسه كيف يستطيع الإنسان أن ينظم كلامه فى حمل مفيدة تشتمل على أسماء وفعال وحروف للإجابة على هذا السؤال يمكن أن نعرض شعبتين

لأفراص الأول هو الوسط الذى يعيش فيه الفرد من أسرته ومدرسته ومجتمع ، هذا الوسط يعينه منه الفرد جمع الصيغ الممكنة ويروده بكل ما يحتاج به من حمل وحفظها خاتمة دون أن يبال أى

جهد في تركيبها . ويتعلم كذلك كيف يربط كل واحدة منها بما
يأتيها من المواقف والحالات وان صح هذا الافتراض على بعض الحمل
التي حفظناها عن ظهر قلب فانه لا يصح إذا نظرنا إلى أكثر ما يصدر
عنا من جمل ، لأن الحمل لا تحفظ المفردات (١) .

ونحن نعلم أن الجمل تنشئها أشياء وتركيبها بحسب ما تنميه عنينا
الظروف والمواقف والإنسان في هذه الحالة حر في أن يتكرر ما يشاء
من صيغ التعبير شريطة أن يتقيد بقواعد النحو .

أما الافتراض الثاني وهو أن الإنسان يتعلم القواعد ويطبقها في
كلامه وهذا نجد سببا يجعلنا نرفض هذا الافتراض وهو أن الطفل يعرف
كيف يتكلم قبل ذهابه إلى المدرسة وقبل أن يسمع شيئا عن قواعد
النحو والصرف وهناك أيضا سبب أقوى وهو أن فحول الشعراء في
الجاهلية لم يكونوا يعرفون شيئا عن قواعد النحو ، بل كانوا ينطقون
بالسليقة ، مما أخطأوا ولا لحوا ، بل أن أشعارهم صار يستشهد بها
عد وضع القواعد على يد النحاة .

وبعد أن اثبتنا خطأ الافتراضين السابقين فلا بد أن نجد تفسيراً
آخر ، وفي الحقيقة هو أن الإنسان يطبق قواعد النحو بالسليقة لا
بالتعلم ، وهذا الحكم ليس مطبقاً فعص القواعد النحوية والصرفية
لا عني للإنسان عن تعلمها ، وما لم يتدرب عليها منذ الصغر فانه
سيرتك كثيرا من الأخطاء حين يتكلم أو يكتب بلغة قومه والقواعد
في الواقع بعضها اصطلاح أي ما اتفق عليه النحاة ، فلا بد إذن من
تعلمه والبعض الآخر منها مطابق للمعطق أي يتماشى مع باهة العقل
فلا حاجة لتعلمه وحفظه .

(١) انظر محاضرات في علم النفس النحوي ص ١٨٤

« ولتوضيح هذه المسألة بقول : إذا نظرنا إلى المفردات فإننا
ستطيع أن نغير بينها نوعين : مفردات لغوية ، ومفردات منطقية »^(١)

أما النوع الأول : فتعني به جميع الأسماء الدالة على إنسان أو حيوان
أو جماد كما تعني به جميع الأفعال الدالة على الحدث المقترن بالزمان .

أما النوع الثاني : فالمقصود به كل كلمة يستخدمها العقل لتكون له
أداة وسندا ولترابط بين معاني الألفاظ بعلاقة من العلاقات ويذكر منها
على سبيل المثال لا الحصر .

١ - أسماء الاستفهام .

٢ - أسماء الشرط والإشارة والوصل .

٣ - وأسماء تدل على الشمول ، مثل كل جميع - سائر ، الخ . فهذه
الكلمات رغم كونها أسماء فهي لا تدل على إنسان أو حيوان أو
جماد وإنما يستعين بها العقل لإفادة بعض العلاقات المنطقية
كفكرة الكم والكيف والزمان والمكان والاستفسار وغير ذلك .

٤ - بعض الأدوات أيضا تعد من هذا النوع كأداة التعريف (ال)
وأداة التنكير (التوهم) وأداة الاستفهام .

٥ - ومن هذا النوع أيضا أغلبية الحروف سواء منها الناصية (ان ،
لن) أو الجازمة ، أو حروف العطف أو حروف المعالي .

ومن الواضح أن هذه الحروف لا تفيد معنى في حد ذاتها وإنما
يستعان بها للتعبير عن بعض المفاهيم كفكرة النفي أو انطباق الحكم
الأول على الكلمة المعطوفة أو فكرة التمييز أو الاستنتاج^(٢) .

(١) نفس المرجع السابق ص ١٨٦

(٢) نفس المرجع السابق ص ١٨٦

ولقد يقول البعض أن هذه المفردات المصطلقية كما يسميها (ميلر)
يمكن أن نطلق عليها تسمية أخرى وهي (المفردات السحوية) لأنها
بالسحر الصق واليه أقرب .

وفي الحقيقة أن أكثر المفردات التي استشهدنا بها مزدوجة أى أنها
تعتبر من أدوات المطلق كما يصح أن تعتبر من أدوات السحو .

وحلاصة القول أن الراشد يتعلم اللغة بوجود طرف ثان ولا بد من
وجود مبه واستجابة والاستجابة لا تحصل إلا إذا توفرت إحدى
الشروط الآتية :

- ١ - شعور المتكلم بدافع قوى أو حاجة ملحة .
 - ٢ - وجود مبهات خارجية في الوسط المحيط .
 - ٣ - رد المحاطب بكلمات تتحول بدورها إلى مبهات ودافع للكلام .
- ونضيف إلى ذلك الحالة التي يكون عليها المستمع أو جمهور
المستمعين وكذلك الظروف والملابسات التي يجرى فيها التبليغ ،
عوامل تؤثر في الكلام من حيث طوله أو قصره .

وبعد فانتا وحدنا أن تعلم الراشد اللغة يحتاج إلى تدريب وممارسة
وتعلم أصول وقواعد اللغة مع وجود الوسط والمحيط الذى يساعد على
سرعة التعلم واتقان اللغة إذ أن الفرد يتأثر بالمجتمع الذى يعيش فيه
ويتعامل معه ، ويستطيع القول أن الفرد لا يتعلم اللغة دفعة واحدة بل
يتعلمها على مراحل وهو في كل مرحلة يصيف إلى معوماته معلومات
جديدة والفاظ ومفردات جديدة ويتوقف سرعة تعلم الفرد اللغة على
مدى استعدادة وقدرته وتقبله فكلما كان المرء مستعدا لقبول المفردات
الجديدة كان تعلمه للغة أسرع

ومن الخطأ التصور أن لغة الفرد على حال واحدة بعد انتهاء مرحلة الطفولة بل هي في تغير مستمر فهو لا يزال يضيف اليها ويعدل فيها إلى أن يموت .

فهو في كل مرحلة يضيف الفاظاً أخرى لا علم له بها هذا بالإضافة إلى ما يسمعه من مدرسيه من ألفاظ جديدة متعلقة بالمواد الدراسية على مختلف أنواعها .

وإذا نظرنا إلى الجنس الآخر كأن يتصل ولد مع فتاة فرعا يسمع ألفاظاً من هذه الفتاة لم يكن قد سمعها من قبل وهكذا فإن الفرد يسمع في كل مكان وفي كل محال وفي كل مجتمع الفاظاً وعبارات جديدة يضيفها إلى معنوماته ودحيته اللغوية ، وهكذا نجد أن لغة الفرد الواحد في فترة من العمر تختلف عن لغة فيما سبق وفيما يلحق من حياته .

وكما أن اللغة كما بين لنا علامة فردية مميزة فهي كذلك علامة طبقية مميزة فلقد تختلف لغة المتعلمين عن لغة غير المتعلمين وتختلف لغة هؤلاء عن لغة اصناف المتعلمين ، وكذلك نجد اختلافاً في اللغة حسب المهنة التي ينتهجها الإنسان ف لغة الصيادين تختلف عن لغة الفلاحين ولغة هؤلاء تختلف عن لغة التجار وعن لغة الخادمين وهؤلاء يختلفون في لغتهم عن لغة أبناء المدارس أو المواطنين الحكوميين وهكذا ونجد أن لغة المعلمين تختلف عن يدبسون بديانات أخرى فاللغة وهذه الحالة هي من القيود بل هي أشبه بصمات الأصابع ، إذ كل فرد يختلف عن غيره من حسب نوع بصماته ويحتاج الفرد إلى مران وتعلم إذا ما أراد أن يتحلى من لغة جماعته إلى لغة جماعته هو أعلى منه درجه في الثقافة أو العلم أو طمعه لاجتماعه

ونحن نعرف أن لغة مجتمع الأثرياء تختلف عن لغة مجتمع متوسطى الحال أو الفقراء إذ نجد الفئة الأولى تكثر من استعمال الألفاظ الأجنبية دليلا على الرقى والحضارة هذا من وجهة نظرهم فكثيرا ما تدخل هذه الطبقة الفاظا انجليزية أو فرنسية حسب درجة ثقافتهم فى الاستعمال اللغوى اليومى العادى .

وفى الحقيقة ان اختلاف اللغات ظاهرة طبيعية بين فئات المجتمع الواحد وطبقاته فلا نستطيع أن نوجد اللغة بين مختلف فئات المجتمع وبهذا تكون اللغة علامة مميزة للطبقة فى المجتمع الواحد .

خاتمة

هذا البحث جهد متواضع يضاف إلى المكتبة اللغوية وقد اختتمت
فكرة الكتابة عن هذا الموضوع في ذهني منذ اعدادى لرسالة
الدكتوراه واستمرت الفكرة مع البحث حتى ظهرت إلى حيز الوجود
في هذا البحث حيث يجد المهتم في أمور اللغة موضوعا شيقا وشاقا الا
وهو علاقة الفكر باللغة ولقد اجهدت هذه المقولة كثيرا من العقول
فحارت بها ولم تستطع أن تقول فيها برأى ، واستطيع القول بعد
الاعتماد على الله أنني أزلت اللثام عن كثير من الغموض الذي كان
يكتنف هذا اللون من الدراسة اللغوية ولقد ساعدنى في ذلك أبحاث
لغوية مترجمة قمت بها أثناء عملى مدرسا بجامعة تلمسان في الجزائر
وخاصة عن الكتب الفرنسية ، واستطيع الآن أن أقدم هذا الجهد إلى
جميع المهتمين بعلم اللغة وخاصة من يريدون معرفة علاقة اللغة بالفكر
أو الفكر باللغة وهى كما ذكرت علاقة فلسفية علاقة وطيدة لا انفصاء
بينهما فالفكر يحتاج إلى لغة تعبر عنه واللغة تحتاج إلى فكر ليبر عنها
وهكذا فاللغة والفكر وجهان لعملة واحدة ، وسيجد القارئ في هذا
البحث موضوعات شتى شيقة تتعلق بالسيمات المشتركة بين اللغات
ووظيفة اللغة كوسيلة للتبليغ والتعبير والتوصيل ثم ما يهم الباحث من
أثر دلالة الألفاظ على المعانى وكان لزاما على القاء الضوء على نشأة اللغة
عند الطفل وتدرجت معه إلى أن يصبح شابا راشدا يدرك مكنون اللغة
ويمتلك رمامها ثم أظهرت مدى أثر اللغة في المعايضة بين الأفراد
والطبقات من حيث أن لكل فرد ولكل طبقة لغتها الخاصة بها التي
تميزها عن غيرها .

وبهذا أرجو الله أن أكون قد قدمت عملاً فيه خدمة للعربية
والإسلام وفيه صون لها وإعلاء من شأنها ..

وبالله التوفيق

أحمد حماد

فهرس الموضوعات

الاهداء

المقدمة

١ - الفصل الأول :

١٦ - ٩

٢٣ - ١٧

٣٠ - ٢٤

٣٤ - ٣١

٣٧ - ٣٥

٤٤ - ٣٨

ا - نبذة تاريخية

ب - اللغة والفكر

ج - الكلام والفكر

د - تطور اللغة مع تطور الفكر

هـ - قيمة الفكر

و - السمات المشتركة بين اللغات

٢ - الفصل الثاني :

٤٨ - ٤٥

٥٢ - ٤٩

٥٤ - ٥٣

٥٧ - ٥٥

٥٩ - ٥٨

٦٠ - ٥٩

ا - الكلام واللغة واللسان

ب - وظيفة اللغة

ج - اللغة وسيلة للتعبير

د - اللغة وسيلة للتبليغ

هـ - دلالة الألفاظ على المعاني

و - وظيفة الكلمة

٣ - الفصل الثالث :

٦٨ - ٦١

٧٥ - ٦٩

٨٤ - ٧٦

٨٨ - ٨٥

٩٠ - ٨٩

ا - أهمية البحث في دلالة الألفاظ

ب - العوامل المؤثرة في تغير الدلالة

ج - نشأة اللغة عند الطفل

د - كيف يتعلم الراشد اللغة

هـ - اللغة عامل فردي وطبقي مميز

٩٢ - ٩١

٤ - خاتمة

٩٤ - ٩٣

٥ - مصادر ومراجع